روايات احلام

فراشة المحبة

شراع في الليل

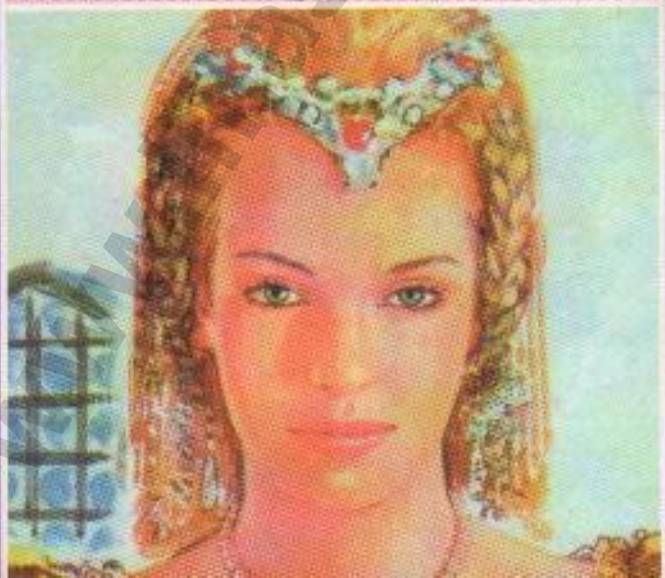

www.liilas.com/vb3

روايات احلام

فراشة المحبة

شراع في الليل

في عينيها غرور شيطاني، وفي قلبها فراغ لا ساحل له.

لم يُخلق بعد الرجل الذي قد يكون نداً لإيلسا الفاتنة... هذا ما كانت تظنه، حتى «اصطدمت» بديك هيلفيلد الذي أوضح أنه ينوي أن يمرغ كبرياءها بالتراب...

سخرت إيلسا منه فقد عاشت حياتها في ترف ودلال وتعرف أن لا أحد قادر على أن يفرض عليها شيئاً. لكن ماذا لو علمت أن ديك يمتلك كل العالم الذي تعيش فيه، وأنه على قيد خطوة من امتلاكها هي أيضاً؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر	المغرب ٥٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ٥ ١ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

www.liilas.com/vb3

١ ـ العاصفة قادمة

ـ إيلسا متكبرة جداً! انظري إليها الآن. إنها تعامل روبرت وكأنه دودة؛ مع أنه يهيم بها، كيف لها ان تكون بهذه القسوة؟

ـ إنها تسير نحو المتاعب ويوماً ما ستندم.

ـ ما دامت تسعى إلى أن يكرهها الرجال، فلماذا حبتها الطبيعة بمثل هذا الجمال؟ الرجال يحومون حولها كالنحل حول قرص العسل.

ـ ليت لي مظهرها، فعندها لحظيت بزوج ملبوقير!

ـ ألاحظت كيف عاملت راندل في الاسبوع الماضي في حفل نادي اليخوت الراقص؟ لقد تجاهلته منذ البداية.. ولم يستطع حتى مطالبتها بالرقص، وكان قد طلب يدها منذ اسبوع.

ـ أظنها انقلبت عليه وطلبت منه الرحيل.

ـ قد تكون أكثر تأدباً من هذا، ولكنها لن تكون لطيفة.. لا، انها لم تراع قط شعور رجل!

ـ لو كنت رجلاً لتجنبتها قدر المستطاع، فمن سيتزوجها يجد نفسه في الجحيم.. سيتزوج شيطانة!

ـ قالت مراراً إنها لن تتزوج أبداً.

قاطعهما رجل قائلاً بمرارة:

ـ أنا أتمنى رؤيتها متزوجة من رجل قادر على إركاعها.

- إركاع ايلسا..؟ يا لك من حالم!

ردّ الرجل بحزن وحقد:

- من الحقائق البديهية أن الكبرياء ترتفع عالياً قبل السقوط.

- يقال إنها على هذه الحال بسبب تزمتها الشديد. فكل من خرجت معهم من الرجال لم يستطيعوا الانتظار إلى ما بعد الزواج.

- وما الضير في قليل من المرح؟ انها تعيش في عصر غير عصرها.

رد صوت نسائي ناعم، يُسمع لأول مرة:

- لا يستطيع المرء التحكم بطبيعة خلقه.. انها خيالية ويجب ألا نحكم عليها حقاً.

- ليس الخيال عذراً لمعاملة من يقع من الرجال تحت سحرها بهذه الطريقة. وكما قلت في مستهل حديثي إنها متكبرة.

- متكبرة ومتغطرسة وصاحبة لسان سليط يوهن عزيمة اي رجل.

كان هذا الحوار أنموذجاً من الأحاديث المتداولة في المناسبات الاجتماعية التي يصدف فيها وجود ايلسا مايون..

ايلسا متوسطة الطول عسلية الشعر زرقاء العينين يميل لونهما إلى الاخضر حتى يبدو للرائي كبحر زبرجدي. كانت رائعة الجمال خلابة وجمالها هذا يخطف الأنفاس فهو يقارب الكمال. قسماتها قوية واضحة المعالم وبشرتها مرمرية فريدة.

وجه جميل حقيقة، ولكنه رهيب حين تكون مالكته في أحد «مزاجاتها» وغالباً ما تكون على تلك الحالة عندما تكون برفقة الجنس الآخر. كانت تعاملهم بازدراء وتنظر إليهم وكأنهم مخلوقات يتعذر السيطرة عليها، وفي إحدى المرات التي حاول فيها أحد الشبان التودد إليها وهما على يخته دفعته إلى البحر.

قال لصديقه فيما بعد وعيناه تبرقان غضباً:

- لقد دفعتني تلك الفاجرة إلى البحر. وعندما عدت إلى سطح المركب ضحكت، وقالت إنها تأمل أن تكون حرارتي قد بردت.

- وما كانت لتهتم حتى لو كنت لا تجيد السباحة.

قالت لها جدتها في أحد الأيام وهما تحتسيان الشاي فوق المرجة الخضراء:

- بدأت اقلق عليك عزيزتي.. ماذا سيحدث لك حين اموت؟

اعتلت الثغر الجميل المكتنز الشفتين ابتسامة حب وردت بدون اهتمام:

- ستبقين معي مدة طويلة.

- حبيبتي... أنا في الثامنة والثمانين.

هزت ايلسا كتفيها الانيقتين:

- وما هو الزمن؟ لو عشنا كما أرادنا الله ان نعيش، لما عرفنا كم تقدمنا في السن.. عمرنا ما نحس به، وأنت تشعرين بلا شك أنك في العشرين، خاصة وأنت على هذا الجانب من النشاط الصاخب.

التمعت عينا جدتها الرماديتان استجابة لهذه المبالغة. ودفعت يداً في شعرها الرمادي الخفيف، في ايحاءة تقوم بها حين تكون مضطربة وقالت:

- ليتك يا عزيزتي ايلسا تتبنين تصرفاً مختلفاً تجاه الشبان الراغبين في التودد إليك.

تغيرت أسارير ايلسا بسرعة قد تكون صاعقة لكل من لا يعرفها عن كثب. واشتد ضغطها على ثغرها وبرقت عيناها...

- إن كنت تأملين أن أتزوج يوماً فاعلمي أنك مخطئة.

صمتت قليلاً بنفاذ صبر ثم أردفت:

- لقد ناقشنا المسألة من قبل مراراً. لن أتزوج ابداً... والسبب ببساطة أن ما من رجل بلغ مثلي العليا. ولو ولدت في جيلك.. أو

www.liilas.com/vb3

في جيل امي لوجدت ربما من يعاملني باحترام، من يرى فيّ ما هو أكثر من قطعة لحم ودم جذابة مرغوبة قد ترضيه في الفراش...

قاطعتها جدتها:

- ايلسا.. حبيبتي، أتمنى عليك أن تكوني أرق عوداً! ففي لحظة تتمنين لو ولدت في جيلي، وفي التالية يبدر منك كلام مقرف كهذا. انت تطلبين الكثير من الرجال، فهم ملزمون حتماً بالتودد إليك حين يقعون في حبك. ويجب أن تتحلي بالصبر والتفهم.. ولا تتصوري أن الرجال في أيامي كانوا مختلفين، فقد كان لهم مشاعرهم ايضاً.

ردت ايلسا وتفكيرها منصبّ على ما جرى لها في القارب:

- ولكنهم كانوا قادرين على السيطرة على أنفسهم.. أما رجال اليوم فلا يسيطرون عليها.

انسلت تنهيدة عميقة من المرأة العجوز، واعتمت عينيها بضباب التفكير.. ثم قالت اخيراً بنعومة:

- ما أروع أن أراك متزوجة من رجل يستحقك وما أروع أن أرى أولادك. فالأولاد يا عزيزتي زينة الحياة. لقد ملأت أمك قلبي سعادة حتى..

- ثم عانيت بشدة.

- لقد حزنت حزناً كبيراً عندما ماتت وأباك في ذلك الحادث...

وارتحل صوتها وظلت لبعض الوقت صامتة. كان الصوت الوحيد المسموع صوت الحشرات المحلقة بين الأزهار، وصيحات الطيور القابعة في الغابة خلف المنزل. غابة كانت جزءاً من اراضي عزبة «تودور» الجميلة، ومنزلها الذي جاءت إليه ايلسا طفلة، ثم ابتسمت العجوز لها، لتعود إلى الكلام مجدداً:

- لكن أنت.. ايلسا، يا أعز الناس.. انظري إلى السعادة التي منحتني إياها والتي ما كنت لأحصل عليها أو عليك لولا زواجي..

ترى أكنت أنانية حقاً؟ أكنت قاسية؟ أكنت أنانية؟

وكان رد إيلسا: «حبيبتي، انسي أمر زواجي».

- إنه تصرف غير معقول...

- جدتي، حبيبتي.. فلنسقط هذا الموضوع ولنتحدث عما هو أكثر للاهتمام.

وان صمت جديد قطعته الجدة ببطء:

- ايلسا.. عزيزتي.. هذا المنزل ليس لي.

- ليس لك؟ لكن...

- ولم يكن قطّ لزوجي. فهو والمزرعة التي تجعلنا في بحبوحة من أمرنا ملك لملاّكي أرض كبار... وهم عائلة معروفة.

ترددت، ثم ذكرت اسماً، وأكملت:

- غراتيمور هال، او قصر غراتيمور، القصر البلدي المحلي، هو أحد أملاك أولئك الملاّكين علماً أن أياً منهم لا يقضي وقتاً طويلاً هناك. مقر العائلة في جنوبي انكلترا.. كان جدك يعمل في املاك غراتيمور هال، وفي أمسية ضبابية وقع ابن العائلة الصغير في بركة وفي ذاك الوقت وفيما كان جدك متجهاً إلى كوخنا الصغير الذي كنا نشغله أثناء مدة عمله في الاملاك فقط، سمع صرخة الولد الصغير وكان أن رمى نفسه في الماء، لكن الضباب كان كثيفاً بحيث مضى وقت طويل قبل ان يجد الولد. وحين وجده أخيراً، كانا معاً في حالة سيئة ولكنهما نجوا، وعرفاناً بالجميل أعطانا والده هذه الاملاك مدى الحياة.. حين أموت ستعود بشكل طبيعي إلى العائلة.

بقيت ايلسا محدقة بذهول شاحبة الوجه مرتجفة الثغر.. هذا المنزل الذي تحبه، البيت الوحيد الذي تذكره لنفسها.. لن يكون لها حين تصبح وحيدة في هذا العالم...!

- لا أستطيع فهم هذا...

www.liilas.com/vb3

كان صوتها خفيضاً يشوبه شيء من العذاب. . كانت ترتجف من رأسها حتى اخمص قدميها.

- لا تصوريني أعيش في مكان آخر. . .

نظرت إلى المرجة المخملية الخضراء، إلى الشرفة المفضية إلى المنزل، وإلى العوارض الخشبية الضخمة التي جعلتها السنون تسوّد.

وأخيراً ثبتت نظرها على دروع مثبتة فوق باب المنزل، وسألت:

- قلت لي، حين سألتك مرة إن شعار النبلاء هذا يعود إلى المالكين السابقين. . .

- لا عزيزتي، بل قلت للساكنين السابقين.

- ألن يسمح لي أصحاب الأملاك بالإقامة؟

ثم صمتت، لأنها أدركت غباء سؤالها، فلماذا يسمحون لها بالبقاء هنا لتعيش في ترف شخص آخر لا تعرفه ولا يعرفها. .

ولكن قلبها انقبض وهي تحاول تصور نفسها في شقة صغيرة تشرف بنفسها على أعمالها المنزلية وتقوم بها. قالت، وقواها الفطرية تتغلب على اكتئابها:

- من الافضل لي إيجاد عمل. فربما من المستحسن ان اعتاد على عمل ما.

- حبيبتي. . لن أسمح لك أن تتركيني يومياً. أنت كل ما املك، وما كنت لأقول لك لو عرفت أنك ستفكرين، ولو للحظة في العمل.

- أنا مضطرة لكسب رزقي في يوم ما جدتي. . .

قاطعتها الجدة بنفاذ صبر: «تزوجي»

- لنبحث في الاشياء العملية جدتي العزيزة؟

- أهم الاشياء العملية التي عليك البحث عنها هو إيجاد زوج يؤمن لك ما انت معتادة عليه من خدم وترف وحياة سيدة ارستقراطية. . لا يمكنك ان تكوني تابعة لرجل في مكتب. إن تلقي

الأوامر من رئيس لا يناسبك ايلسا. . خاصة ولك هذه الكبرياء.

إن قولها صحيح! لم تفكر في الأمر من هذه الوجهة. فكيف ترضى أن تكون تحت إمرة رجل أو تكون طوع بنان أحد أفراد الجنس الكريه! سوف تتمرد حالما يصدر إليها أمراً! وستقول له اذهب إلى الجحيم!

اضطرت مرغمة للاعتراف:

- اذن، فالعمل غير وارد. . ولكن علي كسب قوتي بطريقة ما.

اصرت جدتها بتركيز جديد: «الزواج هو الحل الأمثل لمشكلتك»

كشّرت عن فمها. . واتجهت افكارها الى الشاب الوسيم هنري ستانفيل الذي قال لها بعد موعدي عشاء معها:

- ما رأيك بقضاء نهاية أسبوع في كوخ الصيد الذي يملكه والدي في اسكتلندا؟ إنه مكان رائع لما ننويه.

انسلت منها تنهيدة عميقة وراحت تتأمل العجوز التي لاحظت للمرة الأولى وجهها المليء بالأخاديد دليل تقدمها في السن. . كانت حتى الآن تراها شخصاً حبيباً أمّن لها أفضل ثقافة ممكنة إذ ارسلتها إلى باريس لدراسة الآداب الاجتماعية، قالت لجدتها:

- يستحيل عليّ أن أراك زوجة فلاح أو عامل.

انسلّت الكلمات الاخيرة من ايلسا بصعوبة، لأن هذه الكلمات إهانة للجدة، ولكن الجدة ابتسمت قائلة:

- لقد عشت هنا أكثر من خمسين عاماً. ولعل حياة الترف التي عشتها أثرت فيّ وفيك أيضاً. . فأنت مثلاً لم تعرفي ما هو مختلف عن هذه الحياة. . إنها حياة كريمة لم يمسّها فساد ولقد اعتبرت ما يحيط بك ملكاً لك بالميراث، ونتيجة لهذا كله اكتسبت هذه الكبرياء. . كبرياء كانت بديهية فطرية، ولكن محيطك قواها

www.liilas.com/vb3

ونتاها... لكن هذه الكبرياء تجعلني أضطرب أحياناً ايلسا.. أنه.. أنا لا أقول إن على المرء ألا يمتلك كبرياء بل على العكس، فأنا لي كبريائي أيضاً. ولكن حين تبالغين فيها تصبحين متعجرفة.

نظرت ايلسا إلى جدتها.. لقد اكتسبت هذه الكبرياء عبر سنوات طوال من العيش في محيط ارستقراطي، ولن تتمكن من التغير الآن. أما التعجرف الذي ذكرته الجدة، فهو للجنس الآخر فقط. كان الازدراء والتعجرف نوعاً من حماية النفس من الرجال المغرورين الوقحين.

لاحظت جو التساؤل يلف السيدة العجوز.. وبما أنها لا تستطيع سوى الرد بما يزعج جدتها تجنبت خوض هذا الموضوع وسألتها عن العائلة المالكة فأجابت الجدة:

ـ كما قلت... كانوا ذوي ألقاب.. لكن هذا ما لم يورثوه لأحد، ثم انهم ليسوا فقط جيل يختلف عمن منحنا هذا المنزل عرفاناً بالجميل لإنقاذ حياة الوارث فحسب، بل إنهم فرع جديد تماماً من العائلة. وأنا اقول «هم» بينما الواقع أن هناك رجلاً واحداً قد ورث كل شيء.. الأرض، والمال، والاملاك.

ـ الولد الصغير.. الوريث..؟

ـ لا.. لقد قتل في الحرب.. وبما أنه لم يتزوج، وليس له وريث مباشر، فقد انتقل الإرث إلى ابن عمه وهو ابن عم بعيد جداً، حدث ان نصفه يوناني.

ـ نصف يوناني؟

ـ أمه يونانية.

ـ أتعيش مع ابنها هنا، في انكلترا؟

كانت تفكر في هذا المنزل الكبير الذي طالما تعلق اسمه بهذه العائلة منذ الغزو الاول. لم يكن القصر الرئيسي «غراتيمور هال»

سكوناً منذ سنوات عدة، لكن ايلسا كانت تفكر دوماً في أنه بحاجة إلى عناية ليفتح أبوابه للعامة.

قطعت جدتها افكارها:

ـ أمه تعيش في اليونان. لقد عادت إلى اليونان منذ وفاة زوجها.

ـ والابن؟ أين يعيش؟

ـ أظنه يعيش أحياناً في اليونان ولكنه يملك منزلاً في جنوبي بريطانيا.

ـ الجنوب...

إنه مكان بعيد عن الاصقاع الشمالية. فكرت في هذا الغريب الذي نصفه يوناني، والذي سيأخذ منزلها منها في يوم ما.. اجل إنه يعيش على مسافة بعيدة من «أردال هال».

ـ انت متأكدة من هذا؟ وكيف تعرفين جدتي؟

ـ أنا على اتصال مع المحامين.. عن طريق المراسلة.. لكن الأعمال الرئيسية يتولاها كينيث الذي هو على اتصال دائم معهم.

ـ كينيث وكيل مزرعتنا.. أيعرف أن هذا المنزل ليس لك؟

ـ أجل.. من المفروض أن يعرف. فكل حسابات المزرعة التي يتولاها يجب أن تصل إلى المالك عبر المحامين.. كان هذا ما نص عليه الاتفاق منذ خمسين سنة.

فكرت ايلسا قليلاً ثم سألت:

ـ الحسابات.. وهل المال المكتسب من المزرعة ليس لك كذلك؟

ـ آخذ ما اريد للمحافظة على هذا المنزل ولتسديد نفقات الخدم والنفقات الأخرى. وقد سمح لي بمبلغ محدد لنفسي، أما الباقي فيعود إلى الأملاك.

ـ هكذا اذن...

www.liilas.com/vb3

لن يترك لها شيء.. اذن.

قالت الجدة، وقد قرأت أفكارها: «لقد ادخرت الكثير».

تصاعد الاحمرار إلى وجنتي ايلسا وهي ترد بسرعة:

ـ فلنتكلم عن شيء آخر جدتي العزيزة.. فلقد كرهت هذا الحديث.

ـ يجب أن نواجه واقع رحيلي المؤكد.

ـ لن ترحلي يا جدتي العزيزة لذا لا تتكلمي بهذه الطريقة.. لا أتصور حياتي بدونك. انت كل ما املك.

كانت تعلم وهي تقول هذا أن لسان العجوز يوشك أن يطرح موضوع الزواج. لكن ايلسا لم تعطها فرصة، بل أكملت:

ـ ستعيشين حتى المئة.. ألم تقولي هذا بنفسك؟

ـ أعتقد أنني قلت هذا، لكن كان ذلك قبل...

أخفضت صوتها وطأطأت رأسها، ولأول مرة في حياتها أحست ايلسا بالخوف، وسألت: «قبل ماذا جدتي؟ أخبريني؟».

قالت السيدة العجوز بحزم وجد:

ـ يا طفلتي.. ألم تتساءلي عن سبب طرح هذا الموضوع الخاص اليوم.. وليس قبل الآن؟

شحب وجه ايلسا: «لست على ما يرام؟».

ـ حين كنت تقومين بسباق اليخوت الأسبوع الماضي، اضطررت لاستدعاء الطبيب.

نظرت إليها نظرة اتهام وقلق:

ـ لم تذكري الأمر أمامي بعد عودتي! ماذا.. ماذا جرى؟ اعني لماذا أرسلت بطلبه؟

ـ أصبت بنوبة قلبية.. لا.. لا تقاطعيني ايلسا.. لم تكن شيئاً خطيراً وها أنا اليوم أتناول الدواء وأشعر بانني على ما يرام.. لكن

يجب أن نواجه إمكانية موتي فجأة.

ـ جدتي!

طفرت الدموع من عيني ايلسا لم تكن تهتم بالمشاكل التي ستواجهها في المستقبل، بل بهذه المرأة التي وضعتها تحت كنفها طفلة صغيرة، فربتها ورعتها وأغدقت عليها الاهتمام والحب.

تمتمت العجوز بطريقتها الهادئة، وصوتها اللطيف:

ـ اعرف تماماً ما هو شعورك حبيبتي، لكن من الخير لك أن تعرفي الحقيقة. حتى إذا ما وقع المحتوم لا تصابي بصدمة كبيرة.

ولم تزيدا على هذا الحديث فقد رفضت ايلسا متابعة الحديث.. بل سكتت تفكر وتذرف الدموع، كان هذا خارج عن عاداتها ولكنها لم تحتمل التفكير في فقدان الجدة الغالية.

مضت ثلاثة اسابيع بعد هذا الحديث، حين قالت الجدة:

ـ اظننا سنذهب إلى «ايسوكس» في عطلة الاسبوع.. ستقومين بسباق في المركب. أليس كذلك؟

فكرت ايلسا بيخت السباق الصغير الجميل الذي اشترته لها جدتها بمناسبة عيد مولدها العشرين منذ سنتين. كان راسياً في «هارويتش» حيث لجدتها منزل ريفي صغير تقصدانه في بعض فترات الصيف. وتقوم عادة إيلسا بسباقات رابحة هامة بمركبها «ناوسيكا» هناك، ولكنها انهزمت في سباقها الأخير امام وافد جديد إلى نادي اليخوت اسمه السيد هيلفيلد الذي تغلب على كل شيء امامه بمركبه الجديد «اوديسوس» وقد قال صاحب ذاك المركب بصوت مهين وعيناه تلمعان على اسم مركبها.

ـ من المناسب جداً أن يهزم «اوديسوس» «ناوسيكا».

ومضت عيناها أيضاً.. وكانت ردة فعله الفورية ان لوى فمه، وقال بصوت ناعم: «أجل، سنهزمها».

www.liilas.com/vb3

ثم ارتدَّ عنها ووقف بعيداً بكل ترفع.

قالت ايلسا بسرعة لجدتها التي أخرجتها من أحلامها:

ـ كيف نذهب يا جدتي وأنت لست على ما يرام؟ أما بالنسبة للسباق فأنا غير مهتمة به.

ـ سنذهب، فأنا اتمتع بالسباق تمتعك به، لذلك لا ارى سبباً للبقاء في المنزل، الطقس رائع، ومن الأفضل الاستفادة منه.

أوشكت ايلسا على مجادلتها ولكنها لمّا لاحظت تعابير الجدة، ارتدت عن ذلك فقد ادركت أنها ستبدأ جدالاً لا طائل منه.

ذهبتا في سيارة قادتها ايلسا.. ومن الطبيعي ان تفكر صامتة في سباقها الاخير الذي قطع سلسلة طويلة من الانتصارات على جميع ما يسمون بالخبراء، بين اعضاء النادي الرجال.. ولم تكن لتشك قط انهم كانوا يصرّون أسنانهم غيظاً على فوزها المتكرر.. فقد كانت تتيه خيلاء، وعجرفة، وتعتبر انتصاراتها انتصارات لا تحمل ذرة من الحظ.

علق أحد الاعضاء حانقاً:

ـ إنها تصدق حقاً أن الامر عائد برمته إلى مهارتها! لست حقوداً عادة، لكنني سأستمتع برؤية سقوطها!

قال عضو آخر: «وأنا كذلك وهناك العديد غيرنا يتمنون أمنيتنا».

ـ لقد اصبح هذا رتيباً..

ثم جاء السيد هيلفيلد الغامض، من حيث لا تدري.. كان صوته جذاباً وانكليزيته متقنة ولكنها مع ذلك عرفت أنه غريب، أو أنه هكذا جزئياً.. ربما إسباني.. ولكن بما أن لا علاقة لها بما هو أجنبي عجزت عن تكوين فكرة. كانت بشرته سمراء لوحتها الشمس، وقسماته نبيلة رائعة.. وشعره أسود متموج غزير أما عظمتي

وجنتيه فمرتفعتان وكأن ليس فوقهما لحم وكانت خطوط فكيه مخيفة كفمه وعيناه بنيتين، شديدتي النفاذ، آسرتين حتى انها لم تتمكن يوماً من إشاحة عينيها عن عينيه بل جذبتها قوة ما وسمّرتها امامه كالفريسة.

وقد اغتاظت يومذاك من تصرفاته وكلماته وتساءلت فيما بعد عما إذا بلغته الشائعات عنها فجعلته يتصرف بهذه الطريقة. فكرت ايلسا وهي تقود سيارتها على الطريق الرئيسية! اجل.. لا شك في أن الشائعات بلغته.

تذكر أن أحدهم قال له بعد فوزه:

ـ أهنئك حان وقت هزيمتها.. كنا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

ومما لا شك فيه أن السيد هيلفيلد سأل آلياً عن سبب هذا التصرف غير الرياضي الواضح من منافسيها.. فهل قيل له الحقيقة؟ هل قيل له إن كرامة الرجال مجروحة؟

لوت تكشيرة شفتي ايلسا.. هذا غير محتمل! فالرجال غير صادقين فكيف يعترفون بالحقيقة؟ خاصة أن الحقيقة تكشف عما يسمّى كرامتهم.. سيقال على الأرجح للغريب شيئاً عن عجرفتها.. حسناً، ايلسا لا تعترض على ما قيل له، ولا تعبأ برأيه حتى.. ولكن عليه ألا يلقي المزيد من تلك الملاحظات وإلا لقي منها ما لن يعجبه.

كانت أكثر من مستعدة لتهنئته كأي رياضي مستعد لتهنئة منتصر استحق نصره ولكن قبل أن تتاح لها فرصة سمعت ملاحظته المهينة المتعجرفة.

اخيراً قالت ايلسا وهي تنظر إلى العجوز:

ـ هل أنت بخير جدتي العزيزة؟

ـ طبعاً.. أنا أستمتع بالرحلة.

www.liilas.com

ووصلنا إلى المنزل الصيفي في وقت متأخر من بعد الظهر فأسرعت الخادمة لإعداد وجبة العشاء.

كان الوقت ظلاماً حين قررت ايلسا، لسبب لا تعرفه الخروج بالمركب.. كانت الجدة قد أوت إلى فراشها عقب تناول العشاء مباشرة. صعدت إلى المركب فشعرت بنسيم عليل يهبّ من جهة الغرب كما كان هناك هبوط للمدّ، افردت بتهور الشراع وانطلقت ولكنها تساءلت: لماذا هذا القرار؟ وانسلت منها تنهيدة عميقة.. لقد تغير كل شيء بالنسبة لها منذ تلك الظهيرة التي أخبرتها فيها جدتها بحالتها الصحية وبحقيقة منزل «تودور» الذي يملكه رجل مجهول سيسعى دون شك إلى المطالبة بحقه.

قطعت حبل أفكارها مدركة أن الاحباط وحده هو ما حملها إلى المركب، وقادها للخروج إلى سكون البحر وهدوئه. كانت الانوار تشع على الشاطىء، والأصوات تتصاعد من مركب آخر يرسو خارج حاجز الميناء..

كان الظلام قد اشتد، فجأة نهضت من كآبتها وأدركت ان الهواء قد اشتد، واصبح ريحاً.

ـ من الافضل أن أثني الشراع...

ولم تكمل لأن المركب أرسل صريراً قوياً من الأسفل وشعرت بأنه أصبح فوق نتوء رملي. فصاحت غاضبة:

ـ آه، كيف فعلت شيئاً كهذا!!

لم تكن تبعد عن البر اكثر من بضعة أميال ولكن المركب لا يحتوي قارب نجاة كما ان السماء ملبدة بالغيوم الدكناء. إن الطريقة الوحيدة التي يجب اعتمادها هي الترجل من المركب لمحاولة دفعه ولكن المياه في مثل هذا الوقت من الليل غير مستساغة.

قالت لنفسها: ليتني أستطيع إدارة «رأس المركب»! لكن ما من

فائدة.. هزّت كتفيها بسخط وغضب ثم أنزلت الاشرعة وهيأت نفسها للمبيت فوق المركب..

كانت الريح تصفر، وارتجفت ايلسا ولفت معطفها حول جسمها، تلعن نفسها لأنها استسلمت إلى أفكارها التي دفعتها إلى الانطلاق بالمركب في مثل هذا الوقت من الليل.. كان لصفير الريح بين حبال الاشرعة إيقاع مزمار ابليس... وارتجفت... إنه عالم مخيف هنا، عالم عزلة وصمت لا يكسره سوى صفير الريح بين الصواري والحبال.. أهي خائفة؟ لا تظن ذلك.. ولكنها بكل تأكيد تشعر بالعزلة وبالانسلاخ التام عن عالم الاشياء الحية.

ثم تعالى من بين الظلام صوت سرعان ما عرفت صاحبه.

ـ ماذا يجري هنا؟

توقف الصوت فجأة لوقوف ايلسا التي قالت بغضب لأنها مضطرة للاعتراف بعجزها: «لقد علقت في الرمل».

ـ بكل تأكيد! وكدت تجرينني إلى الرمال أنا أيضاً. لماذا تشعلين الضوء؟ الا تفكرين؟

لمع نور مصباح يدوي في عينيها، فاغشى بصرها. تصاعد الغضب في كيانها رغم اعترافها بخطأ إضاءة المصباح، غير أنها لم تستطع الجلوس هناك في الظلام بمفردها. انخفض المصباح اليدوي، وعاد الصوت يقول بذهول هذه المرة:

ـ إذن هذا «ناوسيكا» مرة اخرى! حسن جداً.. من كان يفكر في هذا؟

سمعته يرمي المرساة، ولم تعرف ما إذا كان عليها ان تستريح أم لا.. ولكن الموقف مذل، لذا صاحت:

ـ لا تتعب نفسك من أجلي.. سأكون على ما يرام حتى الصباح!

ـ صحيح؟ حسناً.. تصبحين على خير.

www.liilas.com/vb3

رأته يسحب المرساة ثانية ثم سمعت صوت «أوديسوس» يبتعد.

راقبته يبتعد بدهشة وعدم تصديق، ثم جلست تغطي النور آلياً بقطعة من قماش. لقد رحل.. حقاً رحل.. وتركها هنا. حسناً! رحمة الله على الشهامة. نعم هي لا تفكر أنها السبب في تصرفه ولكن دافعها لما قالته بعجرفة إظهار كرامتها. وكانت تعتقد انه سيكون كريم الاخلاق، شهماً بحيث سيصر على مساعدتها.

وعوضاً عن ذلك حمل كلامها على محمل الجد ورحل!

تصوروا رجلاً لا يؤاخذه ضميره ابداً على ترك امرأة في ورطة كهذه؟

التوى ثغرها في تكشيرة.. هذا دليل آخر على أن الرجال يستحقون الازدراء!

اصبح مركب «اوديسوس» كتلة متوارية لا شكل لها ثم غاب عن ناظريها فعادت من جديد إلى عزلة تامة. وارتجفت بعنف، تضغط ذراعيها بعنف على صدرها. سوف تتجمد قبل طلوع الصباح.. رفعت رأسها برعب خافقة القلب. إنه البرق! أصغت متوترة إلى صفير الريح الراعدة المنذرة بالعاصفة.

العاصفة قادمة.

* * *

٢ ـ الآنسة «استقلال»

جلست على جانب المركب، تحتضن نفسها بذراعيها. كان بإمكانها اللجوء إلى القمرة، ولكنها ارتأت البقاء في الخارج حيث العاصفة تتابع ثورتها حتى ابتلت ثيابها وتخدرت أطرافها واصطكت اسنانها.

وبعد وقت بدا لها طويلاً طويلاً شاهدت نوراً.. نور مصباح يدوي يُضاء وينطفىء.. انتزعت قطعة القماش عن مصباحها.. ولكنها حتى في هذه اللحظات الحرجة، رفعت رأسها بشموخ وكبرياء إذ سرعان ما عرفت أن «أوديسوس» هو المتقدم إليها، لقد عرفت هذا حتى قبل أن ترى صاحبه. أجل، لا مجال للخطأ مع شخص يملك هذا الجسد الفارع، انخفضت المرساة ثم تناهى إليها الصوت الارستقراطي الواضح يناديها.

ـ حسناً آنسة «استقلال».. هل أنت مستعدة الآن لتقبّل المساعدة؟

كانت السخرية واضحة في نبرة صوته ولكنها ممزوجة بشيء من الغضب وببعض القسوة.. آنسة «استقلال»! تحولت عيناها إلى اللون الأخضر عوضاً عن الأزرق! يا لعجرفة وغرور هذا الرجل! تفضل الموت على قبول مساعدته!

صاحت بغطرسة آمرة:

www.ilias.com/vb3

- اذهب من هنا.. ماذا تعني بعودتك إلى هنا لإزعاجي؟
تعرف أن قولها غبي لذا لم تستغرب صيحته المستهجنة.
- أزعجك! هل أنت مجنونة؟
- قلت لك ابتعد عن طريقي!
لم يرد، ولكنها واثقة أنه كان يلعنها بينه وبين نفسه.
- اذهب من هنا.. قلت لك!
ساد صمت جديد، وشاهدت طيفه الاسود يتحرك فوق سطح مركبه.. ثم صاح قائلاً:
- أنا قادم بقارب النجاة.. فاستعدي للنزول. لا أنوي إضاعة الوقت والبحر على هذه الحال.
تكلم بلهجة عادية ولكن ايلسا أدركت نبرة الأمر والتحذير: تحديني إن كنت تجرؤين!
انتشرت الحرارة فيها، حرارة الغضب المتقد كالنار..
- ألا تفهم ما أقول؟ اذهب من هنا!
خرجت كلمات الامر مشوهة بسبب عنف اصطكاك اسنانها.. غير أنها لن تُذلّ نفسها أمام هذا الرجل لينقذها قالت لنفسها بعناد إنها عند الصباح ستقدر على تحريك المركب بدون مساعدة أحد وستعود ساعتئذ إلى المنزل الصيفي قبل ان تنهض جدتها من فراشها. مع ذلك اعترفت لنفسها وهي واقفة هناك أنها ارادت أن ينقذها احد، لكن هذا كان قبل أن يناديها هذا المخلوق الكريه بـ «الآنسة استقلال». نادت والقارب يقترب منها:
- أنت تضيع وقتك سدى. لن اذهب برفقتك.
جذف بقوة متجاهلاً قولها، وقال يأمرها بحدة وبإشارة مهيبة ملؤها الكبرياء:
- انزلي.. قلت لك انزلي!

لم تتحرك ايلسا، بل وقفت تمسك حاجز المركب وكيانها كله يتحداه يترفع. صرّ الرجل على اسنانه، قفز من القارب إلى الرمال. وقبل أن تدرك نواياه انتزعها من مكانها، ورماها في القارب.. قال وليهجته متذبذبة من فرط الغضب.
- والآن تجرئي على الحراك. أقسم إن تحركت أن تتلقي لطمة على اذنك ستجعلها تظن ألماً مدة أسبوع!
شهقت: آه! ثم صمتت غاضبة وقالت أخيراً:
- كيف تجرؤ على تهديدي؟ من انت لتأمرني؟
- اضبطي لسانك..
- لن أضبطه.
- ايتها المتوحشة العنيدة السليطة اللسان! اسكي هذا الدلو وابدئي بتفريغ الماء وإلا غرقنا.
بدأ القارب يتلاطم وكأنه قطعة من فلين. وكانت المياه تنسكب فيه كسيل جارف. بدا البحر مجنوناً كما لم تره قط وشعرت بأن القارب الصغير لن يحتمل فرصة للنجاة.. فجأة أحست بالخوف، وبدأت تجرف الماء إلى الخارج أما رفيقها فراح يجذف بضربات قوية توصلتهما أخيراً إلى مركبه. ولكن المقاومة كانت شرسة واستغرق هذا العمل وقتاً طويلاً. اعجبت ايلسا في سرها بقوة هذا الرجل وتصميمه، وقالت بعد فترة وهي مطأطئة الرأس تخفي اذلالها الذي تحس به بسبب اضطرارها إلى تقديم التقدير الكلامي لما فعله لها.. فهي غير قادرة على مواجهته، بسبب كبرياؤها.
- شكراً لك.
تأملتها عيناه السوداوان بسخرية:
- ما دام شكرك ممزوجاً بهذه الضغينة فاتركيه لنفسك!
امتقع وجهها في الظلام.. ووجدت نفسها تقول باللهجة

www.liilas.com/vb3

المتعجرفة ذاتها: «كنت قادرة على تدبر أمري حتى الصباح».

ـ ما كان ليكون مركبك في مكانه عند الصباح.

ـ أنت مخطىء كان سيكون هناك طبعاً في الصباح.

اعقب كلماتها صيحة استهجان من رفيقها.. لكنه لم يعلق بشيء، فمن الواضح أن صبره قد نفذ.. ثم قال بعد أن قاستها عيناه باستخفاف للحظات:

ـ ستجدين ملابس جافة في القمرة. فلو كنت مكانك لغيرت ثيابي، لأنك ستعانين كثيراً إن بقيت مرتدية هذه الملابس.

كان يرتدي ثياباً واقية من الماء، وقبعة مماثلة. ردت عليه بجفاء: «لن أستبدل ثيابي بأخرى».

عادت عيناه تقومانها ثانية، ثم نظر إليها بازدراء قبل أن يرتدّ عنها إلى سحب المرساة. أحست للمرة الأولى بانها صغيرة وهذا ما كرهته.

مرت ساعة كانت العاصفة خلالها لا تنفك عن الزمجرة وكان الرجل الواقف أمامها يحاول بكل خبرته أن يشق طريقه في هذه العاصفة الغضوب.. أما ايلسا فكانت تمسك الحاجز بأصابع باردة متجمدة. فكرت لوهلة في أنهما قد يبقيان طوال الليل في البحر وتساءلت عن الوقود.. لكنها عرفت غريزياً أن السيد هيلفيلد ليس برجل يترك للطوارىء فرصة لمباغتته.

اخذت تراقب عرض منكبيه.. وبدا لها جزءاً لا يتجزأ من مركبه.. جسده الطويل الرشيق يتهادى ويقفز معه.. هو رجل قوي ذو سلطة، هذا ما كانت تعترف به لنفسها. بدا لها وهو يرتدي بذلته البحرية السوداء الواقية من الماء أقوى من جميع الرجال الذين عرفتهم والذين يتصاغرون إذا ما قورنوا به وادركت مدى ثقتها بقدرته على السيطرة على مركبه، وعرفت رغم غضب البحر وما يمثله من

مخاطر أن هذا الرجل سيوصلهما إلى بر الأمان في النهاية.

نظر إليها فجأة وكأنه أحسّ بنظراتها واهتمامها. كانت عيناه المنعزلتان تتأملانها بازدراء وسخرية ثمّ لم يلبث أن أشاح بوجهه عنها، وعاد إلى العمل الصعب بين يديه.

تورد وجه ايلسا. لا تنكر أنها كانت ناكرة الجميل غير أن كبرياءها منعتها من الاعتذار على سوء تصرفها.

فجأة اطلق صيحة غضب، وهذا ما حدث أكثر من مرة في الساعة الاخيرة وكان في كل مرة يستدير ليرميها بنظرات حارقة.. وكان على طرف لسانها أن تذكره انه عاد إليها طوعاً، لكنها تراجعت لأن الوقت ليس مناسباً لقول شيء كهذا، إنهما يواجهان خطراً، وهذا ما تتقبله بلا اعتراض.. ولو قررت أن تتكلم، فستسأله ما اذا كان هناك ما تقدمه من عون لكنها تعلم أنها لن تستطيع تقديم أي عون.

التفت الرجل لحظة إليها، وكأن منظرها عاد إلى ذهنه:

ـ قلت لك إن في القمرة ملابس جافة.

جالت عيناه على جسمها المبلل الذي التصقت به الملابس وما زاد من التصاقها بجسمها الريح الشديدة التي كانت تلسع وجهها، بدت زرقاء من البرد وقلقت خشية أن تغمض عينيها لا إرادياً.. احست انها حالما تغادر هذا المركب ستنام أسبوعاً كاملاً.. قال بقسوة مشيراً إلى السلم المفضي إلى القمرات: «انزلي...».

تمسكت بسرعة بهذا الأمر. لقد تصرف معها حتى الآن بلا مبالاة وكأنه يقنع نفسه: «اذا كانت تفضل البقاء هكذا فلتبق» لكنه بدا الآن وقد اتخذ قراراً.. قرار يقضي أن يفرض سلطته على مركبه. وكرر بلهجة منخفضة هادئة خطيرة:

ـ إلى الاسفل.. وإياك العودة إلى ظهر المركب إلا بعد

www.liilas.com/vb3

استئذاني. وهذا ما لن يحصل قبل وصولنا بأمان إلى المرفأ.

ارتفع ذقنها امام لهجته الآمرة ولكن عينيها كانتا تعيان الظلام الذي يلفهما، واصابعها تشتد حول الحاجز بعدما رمت موجة رهيبة ثقلها فوق المركب.. وقالت:

ـ هل سنصل بأمان إلى المرفأ؟

لوت ابتسامة شفتيه وردّ بهدوء:

ـ نعم طبعاً.. انزلي، وإن لم تطيعي وجدت نفسك محمولة. وستكرهين هذا.

نظرت بسرعة إليه بارقة العينين.. كانت عيناه تتحديانها بقسوة وظلتا تنظران إليها بحدة حتى اضطرت إلى غض النظر.. ما نوع هذا الرجل.. من أين له هذه القوة الغريبة التي تجعلها تحس بالسخط؟ لم تلتق قط بشخص مثله.. أرادت بعناد ملازمة مكانها ولكن، حين بدأ يتحرك إليها اضطرت للتراجع بضع خطوات إلى الدرج الذي يقود إلى القمرات في أسفل المركب.

ما إن دخلت إلى قمرة الصالة حتى شعرت بالدفء واضطرت للاعتراف بأنها كانت غبية حين رفضت النزول قبل الآن. دفعها الضوء إلى إغماض عينيها للحظة، وما إن اعتادت عليه حتى نظرت إلى ما حولها، مقدرة فخامة الموجودات التي تدل على الثراء. رأت أريكتين للجلوس والنوم ملتصقتين بالجدار فاتجهت إلى إحداهما ولكنها توقفت فجأة فقد أدركت استحالة الجلوس على القماش الرائع وهي في هذه الملابس. وكان هو قد لحق بها، فالتفتت بطريقة لا واعية تفرك يديها في محاولة لاعادة الدفء إليهما. تركزت عيناه على يديها فترة، ثم هز رأسه دليل نفاد صبره.

وهنت حدة العاصفة قليلاً وتوقف عويل الريح وخف تلاطم الموج على جانبي المركب. ولكن ودونما سابق إنذار مال بسرعة

فقدت توازنها، ووقعت على صدر الرجل، مذعورة، واضطرت إلى التمسك بأكمامه لتسترد توازنها.. سرعان ما تصاعد الدم مجدداً إلى وجهها بسبب النظرة الساخرة التي تصاعدت إلى وجهه... قال لها:

ـ الحمام هناك.. المياه ساخنة. استحمي إن اردت. ستجدين الملابس في الخزانة القابعة في الناحية الأخرى من قمرة الصالة الصغيرة وبعد ذلك نامي قليلاً.

تجاهلت ما قال، وأشارت:

ـ العاصفة تخبو.. فهل سيطول الوقت قبل أن ندخل إلى الميناء؟

ـ لا ادري.. إنها الواحدة ولا أظنك ترغبين في التوجه إلى سريرك في الظلام، نامي اذا استطعت.

وقفت ايلسا فترة طويلة بعد ذهابه كانت خلالها تتساءل عنه.. من أين أتى؟ ما اسمه الاول؟ افترضت أن عضواً من أعضاء نادي يخوت، قد يجيب عن هذا السؤال إن سألت. شاهدت اسمه على لائحة الفوز عندما فاز بالسباق «د. هيلفيلد» ولكنها لم تهتم ولم تسأل.

اتجهت أخيراً إلى الباب لتفتحه فرأت باباً آخر في الممر عاشرة.. إنه الحمام الذي اشار إليه.. حمام ساخن أمر مغرٍ. ولكن كبرياءها أطلّت رأسها مجدداً.. أتستحم، وترتدي شيئاً من ثيابه.. بكل تأكيد لا؟ هذا أكثر من أن تتحمله كرامتها.. وها العاصفة توشك أن تخبو عملياً، لأنها لاحظت أنها تقف بدون أن تتمسك بشيء.

«شكراً لله!» ما إن تلفظت بالشكر، حتى أدركت تعبها الرهيب الذي اخذ يلفها.. بدأت تهز رأسها وتتمتم: «ماذا أصابني؟ لست على وشك الاغماء!» مع ذلك، عادت إلى الصالون ونظرت بشوق

www.liilas.com/vb3

إلى الاريكة المواجهة لها. واغمضت جفنيها. . كانت الدنيا تدور بها بحيث كادت لا تعي ملابسها المشبعة بالماء، أو ألم أصابعها وأصابع قدميها المتجمدة برداً.

توجهت نحو احدى الاريكتين، وجلست على حافتها، غير عابئة بالضرر الذي ستنزله بها. . كانت ترتجف بعنف، واستطاعت سماع اصطكاك اسنانها، لكنها أحست بشيء من الغثيان في اسفل معدتها.

كان محرك المركب يدور بهدوء. وحين رفعت رأسها لدى سماعها وقع اقدام الرجل على الدرج عرفت أنه يستخدم البحّار الآلي. . .

ـ يمكن رؤية انوار الشاطىء الآن.

صمت، ثم قال بصوت منخفض، بعدما رآها بملابسها الرطبة.

ـ ايتها البلهاء. . لم أرَ في حياتي كلها امرأة حمقاء مشاكسة مثلك!

ـ أنا لست مشاكسة!

ارادت البكاء وهذا ما دفعها إلى الرد بحدة:

ـ أنت من تتحدث كالغبي!

رد، وكأن احتجاجها لم يكف:

ـ أنت تتعمدين المشاكسة. أولاً لماذا لم تتخلي عن كبريائك السخيفة، ولماذا لم تعترفي أنك بحاجة إلى المساعدة؟ فلو اعترفت بحاجتك إلى مساعدتي لتجنبنا كل هذا ولعدنا إلى الشاطىء قبل أن تبدأ العاصفة.

ردت بسوء خلق:

ـ أيجب ان تتابع كلامك؟ ما كنت بحاجة للعودة لأجلي. . كان بإمكانك البقاء حيث تكون آمناً. .

توهجت عيناه: «وماذا عن ضميري؟ بم كنت سأشعر لو هلكت

حمقاء؟».

ـ إذن كان ضميرك الدافع إلى إنقاذي. أليس كذلك؟ يا لرجولتك! من الصعب ردّ فعلك إلى الشهامة والمروءة.

صاح وعيناه حمراوان غضباً: «كان علي تركك حيث أنت».

ردت وهي تكاد لا تفهم ما تقول:

ـ لو تركتني، لما كنت على هذه الحالة! مبتلة و. . و. .

صمتت لأنها شعرت بألم فظيع في رأسها. حاولت الوقوف ولكنها ترنحت، وبدأت الغرفة تدور بها.

ـ ما خطبك؟

كانت الكلمات الحادة مبهمة بالنسبة لها، ولكنها وعت نظرته القلقة وهو يلاحظ وجهها الابيض، وجسدها المرتجف:

ـ أحس. . أحس. . بأمر رهيب. .

وكان هذا آخر ما تمكنت من قوله. . وهذا ما أعاد إلى ذاكرتها مدى غبائها عندما سمحت لكبريائها بالتغلب على تفكيرها السليم.

لم تتوقع أية شفقة. . والشفقة آخر ما تحتاج إليه. ولكنها لم تكن مستعدة للغضب الذي توجه نحوها.

ـ أيتها البلهاء العنيدة الصغيرة! لماذا لم أمسك بخناقك قبل الآن وأدفعك إلى الداخل. لا أدري، كان عليّ أن أقف لأشرف عليك وأنت تخلعين هذه الملابس! اخلعيها الآن فوراً! ثم نامي. . إن رأيت مزيداً من عنادك الانكليزي فستتلقين دفعة من العقاب الذي تستحقينه.

لم يتمّ كلامه بل وثب إلى الامام ليتلقاها فقد ترنحت وفقدت توازنها قبل أن تنزلق إلى الأرض مغمياً عليها.

فتحت عينيها، تصر أسنانها من فرط الألم ثم أغمضتهما ثانية بقوة. أين هي؟ لا صوت إلا نبض عنيف في رأسها. . ويا له من

www.liilas.com/vb3

نبض مؤلم!..

فتحت جفنيها ثانية، ونظرت إلى ما حولها. آه.. أجل! انتظرت قليلاً لتتذكر كل شيء. ما من صوت.. المركب اذن متوقف بأمان.. يا لها من ليلة!

أصغت.. إنه صوت.. التقطت أذناها وقع أقدام فوق رأسها.. السيد هيلفيلد.. يتجول. لقد كان موجوداً حين أظلمت الدنيا حولها... ارتفع ضغط دمها لبروز فكرة... مدت يدها تحت الغطاء الدافىء الناعم الذي يسترها.

صاحت مرتبكة خجلاً: «لا، كيف تجرأ على نزع ثيابي؟».

نظرت إلى ما تحت الغطاء مترددة فهي تعرف مسبقاً أنها ترتدي احدى بيجاماته التي مقدمتها مفتوحة، فهو لم يزعج نفسه بتزريرها.. أجل.. عليها ان تتقبل واقع أن هذا السيد البغيض «هيلفيلد» هو من نزع عنها ثيابها..

كانت فكرة خلع ملابسها عنها مقيتة كريهة، وقد حاولت بيأس نسيانها ولكن عندما ظهر الرجل أصبحت محاولاتها عبثية.. فبعد نزوله بهدوء، وقف في الباب المفتوح، مستنداً إلى حافته بطريقة تنم عن الضجر، بدا نشيطاً منتعشاً، بارداً غير متعب وكأن المحنة لم تمر به.. وقال:

ـ اذن.. استيقظت اخيراً.

تقدم بضع خطوات: «كيف تشعرين الآن؟».

احمرّ وجهها، فقد ظهرت السخرية والتسلية على قسماته السمراء فأضافت إلى حرجها حرجاً مضاعفاً. أخفضت جفنيها بسرعة.. فالارتباك يستحوذ عليها وتفكيرها يضج بصورة هذا الرجل الكريه وهو يخلع عنها ثيابها.. ردت كاذبة، بصوت مخنوق:

ـ أنا.. بخير.. هل تسمح بالخروج لأنني سأنهض للذهاب إلى

بيتي.

لكنه بقي حيث هو، ينظر إلى قمة رأسها:

ـ كيف حدث أن كنت هناك بمفردك، في مثل تلك الساعة من الليل؟

رفعت رأسها، وارتفع ذقنها: «كنت هناك أنت أيضاً».

ـ الأمر مختلف.. البحر وقت العاصفة ليس مكاناً صالحاً لامرأة.

ـ أنا أكثر من قادرة على السيطرة على مركبي.

لوى شبح ابتسامة شفتيه.. إنها ابتسامة ازدراء.. تماثل نظرة عينيه. قال غير عابىء بمشاعرها:

ـ يبدو انك نسيت اين كنت.. هل من عادتك أن تدفعي قاربك إلى الرمال؟

ازداد امتقاع وجهها وردت بكبرياء:

ـ هل تركتني رجاء. أريد ارتداء ملابسي.

ولكن ألم رأسها تزايد فرفعت يدها إلى جبهتها.. غيّرت حركتها تعابير وجهه قليلاً ولكنه لم يعلق.

ـ لم تخبريني حتى الآن بسبب خروجك إلى البحر ليلة أمس؟

ـ ولماذا أخبرك؟

اشتعلت عيناه وقال بعذوبة:

ـ لم أرَ قط امرأة بفظاظتك وسوء أخلاقك. ستكون كبرياؤك هذه سبب سقوطك.. في يوم ما.. من المؤسف انك كنت فاقدة الوعي حين نزعت ملابسك، لأن ذلك كان سيزيل قدراً كبيراً من كبريائك..

كان يقصد أن يوقع في نفسها أقصى درجات الحرج، ولكنها قابلت نظرته بترفع:

www.liilas.com/vb3

ـ لم يكن يحق لك لمسي! هذا اعتداء إجرامي!

كان كلامها تبجحاً، تبنته لتخفي قلقها.. أما رده على كلماتها فكان:

ـ ليتك كنت واعية.

ـ لو كنت واعية لما سمحت لك بوضع إصبع عليّ.

ارتفع رأسه جانبياً يقول «لا؟» حركته المتعجرفة أغاظتها، فهي لم تكن دليل تحد فحسب، بل دليل قدرته على فعل ما يشاء بها. أكمل ساخراً:

ـ كيف كان بإمكانك إن جاز لي السؤال، أن تمنعيني من لمسك؟

عبست بشدة، تدرك أن الهزيمة تواجهها، مع ذلك لم تكن قادرة على تقبلها بكرم اخلاق. قالت بجفاء:

ـ لقد طلبت منك ان تتركني.. لا شك في أن جدتي ستقلق عليّ إن لم تجدني وقت الفطور.

رفع حاجبيه الارستقراطيين، ثم نظر إلى ساعته:

ـ الفطور؟ أتعرفين كم الساعة الآن؟

شحب وجهها، وهزت رأسها نفياً: «لا، هل مضى وقت الفطور؟».

ـ إنه الظهر.

هبت من رقدتها وقالت:

ـ الظهر؟ لا شك أن جدتي مذعورة! أرجوك اخرج، أريد ارتداء ملابسي. أين هي؟

نظرت إلى الصالة حولها، وكأنها تتوقع رؤيتها معلقة لتجف. في غمرة لهفتها على جدتها، لم تجد مكاناً للكبرياء التي كانت ستهب عالياً في ظروف اخرى.. وقد نسيت حتى أن تلملم أطراف

سترة البيجاما ولم تنتبه إلا حين شاهدت عينيه تطوفان عليها.

سأل: «أتعيشين مع جدتك؟».

ردت بسرعة ولهفة: «أجل، ملابسي أرجوك».

تجاهل طلبها: «وأين هي جدتك في الوقت الراهن؟».

ـ في منزلنا الصيفي الذي لا يبعد كثيراً عن الميناء.

قال بصوت ملهوف قلق: «ولماذا لم تأت إلى هنا قبل الآن؟».

قبل أن تقاطعه متسائلة، أردف قائلاً إنه اتصل بالشرطة حالما رسا المركب في الميناء في ساعات الصبح الاولى، وقد بلّغهم أن معه على المركب الآنسة ايلسا مايون.

قاطعته: «تعرف اسمي؟».

ـ لقد سمعت اسمك مراراً أثناء الوقت القصير الذي انضممت فيه إلى النادي.

ردت بعجرفة: «وهل أعجبك ما سمعته عني؟».

ـ لم أكن مهتماً ليعجبني.

أحست ايلسا بالدم يكاد يطفر من وجهها... وقالت:

ـ قلت لي إنك ابلغت الشرطة.

ـ قالوا إنهم سيعلمون أقاربك، ولقد انتظرت ساعة ونصف ثم غفوت، وأخشى أن إغفاءتي قد دامت نصف ساعة ولكن، لو أحضر الشرطة جدتك لأيقظوني بالتأكيد، لذا، من الواضح أنها لم تأت.

عبست ايلسا: «ماذا قلت للشرطة؟».

ـ شرحت لهم أنني نقلتك إلى مركبي أثناء العاصفة وأنك انهرت من التعب.

ـ ليتك لم تزجّ الشرطة في هذا. لا أستطيع التفكير في ما يحول دون مجيء جدتي.. غير أنني اتمنى.. أتمنى ألا تصاب بنوبة قلبية اخرى بسبب هذا.

www.liilas.com/vb3

- نوبة قلبية؟

هزت رأسها وقد نسيت كل العداء وقالت له:

- إنها في الثامنة والثمانين.. عرفت مؤخراً أن قلبها مريض.

بان قلقها واضحاً في نبرة صوتها وفي عينيها الجميلتين. وارتجف ثغرها وابتلعت ريقها بصعوبة، وكأنها تتخلص من غصة مؤلمة في حلقها. كان الرجل الواقف بباب القمرة ينظر إليها مفكراً. ولكن عندما تغيرت ملامح وجهها، اخذت عيناه تتسعان وكأن ما يبدو امامهما منظر غير متوقع.. وكأن المائلة أمامه قد رفعت عن وجهها البرقع الذي يغطي وجهها الحقيقي. برقت عيناه وبدا غير قادر على إشاحتهما عن وجهها.

اخيراً قال: «أنت لغز مبهم، سأحمل إليك ثيابك».

وارتد على عقبيه مغادراً الصالة، ولكنه استدار فجأة فرآها تضع يدها على رأسها: «ما بك؟».

بدا لها شخصاً مختلفاً فقد حلت نظرة قلق واهتمام مكان نظرة الازدراء:

- أما زال رأسك يؤلمك؟

حاولت لملمة شتات كبريائها، ولكنها عوضاً عن ذلك استسلمت للألم المتزايد، واطلقت آهة ألم خفيفة.. ثم قالت تعترف:

- إنه يؤلمني.. كما تؤلمني عظامي كلها. يجب أن أنهض لأعود إلى البيت، إلى جدتي التي هي دون شك مريضة..

حاولت جاهدة الجلوس مجدداً، ثم أردفت والغصة في حلقها:

- وإلا جاءت إلى هنا قبل الآن.

- لو اتصلت بها الشرطة...

- بالتأكيد اتصلوا.. منزلنا لا يبعد اكثر من دقائق سيراً على

القدمين.. ولا بد أنهم عرفوا كل شيء عني من النادي.

صمتت قليلاً ثم صاحت: «لا شك أن هناك خطباً ما، يجب أن اذهب إليها بسرعة!»

وفيما كانت تتكلم أحست بنوبة ألم اخرى في رأسها فعضت بقسوة على شفتيها لتمنع دموعها من التساقط.

- أرجوك، احضر لي ملابسي...

تلاشى صوتها امام رجفة سرت في اوصالها:

- ماذا دهاني يا الله؟

رد بلهجة ملؤها نفاد الصبر والقلق:

- لن تحتاجي إلى ثيابك فترة. لماذا لم أجبرك على خلع ثيابك المبللة فوراً، لا ادري! ما كان عليّ أن أتركك على سطح المركب!

كان الآن واقفاً على مقربة منها، وأحست بيده القاسية الباردة على جبهتها.. ملمسها رائع.. ليته يتركها هكذا.. وأخذت لهفتها على جدتها تتضاءل.. وعرفت انها بدأت مرة اخرى في التسلل هرباً.. إلى الغيبوبة...

* * *

www.liilas.com/vb3

٣ ـ المطرودة من الجنّة

عندما فتحت ايلسا عينيها، وجدت رجلاً أشيب الشعر، طويل القامة، يشرف عليها. رفرفت عينيها قليلاً.. ثم حركت رأسها فوجدت السيد هيلفيلد يقف على مسافة قريبة منه.

قال، رداً على سؤال لم تطرحه:

ـ استدعيت الطبيب. فقدت الوعي ثانية..

هزت رأسها على الوسادة.. كان جسدها كله يرتجف والعرق يتصبب منها.. أحست بالشراشف مبللة، وشعرها ملتصق بجبهتها.. قال الطبيب:

ـ كان علينا نقلك إلى المستشفى.. ولكنني ارتأيت ألا تبرحي مكانك.

استدار إلى السيد هيلفيلد، وتمتم بكلمات لم تسمعها ايلسا ولكن الرد جاء واضحاً:

ـ بالطبع تستطيع.. سترسل ممرضة كما أتوقع؟

هز الطبيب رأسه وقال:

ـ سيمضي أسبوع قبل أن تتمكن من العودة إلى منزلها.

حاولت الجلوس ولكن الجهد كان مؤلماً:

ـ اسبوع؟ جدتي.. أين هي؟ ماذا أصابها فمنعها عن المجيء؟

لم تستطع منع الدموع فتركتها تنهمر على وجنتيها وقالت

بحسرة:

ـ أخبراني.. يجب أن اعرف!

تبادل الرجلان النظرات، وبعد تردد قصير نظر الطبيب إلى عيني ايلسا القلقتين:

ـ نقلت جدتك إلى المستشفى هذا الصباح.. فمن سوء الحظ أن أحد الرجال نقل إليها قبل الشرطة خبراً مفاده أن المركب ناوسكا قد تحطم وقد أصيبت نتيجة الصدمة بنوبة قلبية.

ساد صمت عميق.. وتسمرت عينا السيد هيلفيلد على عيني الفتاة المستلقية على الفراش.. واخذ الطبيب يكتب الوصفة بهدوء.

أخيراً، تمكنت من القول بصوت اجش مختنق:

ـ جدتي.. هل ستـ... ستتمكن.. ستكون.. على ما يرام؟

رد السيد هيلفيلد: «إنها مريضة.. لكنها ليست في خطر حالياً..».

ـ كيف سمعت جدتي الخبر بهذه السرعة..؟ لقد اتصلت الشرطة باكراً هذا الصباح.

رد السيد هيلفيلد: «لم يتحرك الشرطة بسرعة فقد كان في الخدمة ساعة اتصالي رجل واحد ويبدو أن الخبر لم يُنقل إلا منذ بضع ساعات.. وكان قبل ذلك قد شاهد احدهم حطام يختك فأسرع ينقل الخبر إلى جدتك التي صدقت أنك غرقت».

لم يكن على وجهه أي تعبير.. ولكن كان واضحاً لها أنه يلومها: أولاً لخروجها في مثل ذلك الوقت، وثانياً لرفضها بادىء الامر عرضه بالانقاذ. فلو قبلت لكانت في المنزل قبل منتصف الليل بكثير، والسبب كبرياؤها.

اشاحت برأسها بعيداً، غير قادرة على التحديق في العينين السوداوين المتهمتين. الكبرياء.. ليتها فكرت قليلاً. ولكن في ذاك

www.liilas.com/vb3

الوقت كان جل اهتمامها الاحتفاظ بكل ذرة من كرامتها، ونتيجة لهذا أبعدت الرجل عنها.

نظرت إلى الطبيب وقالت:

- يجب أن أعود إلى جدتي.

ولكنه هز رأسه وقال لها إنها ستبقى هنا خمسة أو ستة أيام، فأردفت تسأل:

- وهل عرفت جدتي انني الآن بخير؟

ابتسم الطبيب قائلاً: «طبعاً»

ثم نظر إلى السيد هيلفيلد ليعطيه الوصفة: «سأرسل إليك ممرضة».

- شكراً لك.

قالت ايلسا بعد ذهاب الطبيب: «آسفة على ما أسببه لك من متاعب».

لاحظت بسرعة نظرة الازدراء تعود إلى عينيه قبل أن يحولهما إلى وجهها ثم ارتدَّ على عقبيه تاركاً القمرة.

بعد ثلاثة أيام شعرت ايلسا بتحسن فلم تعد الرجفة المزعجة تصيبها، والألم زال عن جسدها ورأسها، لكنها ظلت تشعر بالوهن. حين قال الطبيب في اليوم الرابع إنها تستطيع ترك السرير مدة ساعة وجدت نفسها تريد العودة إليه قبل هذه المدة.

كانت الممرضة تقيم في المركب ايضاً، تنام في السرير الآخر في قمرة النوم نفسها أما السيد هيلفيلد فكان دون شك يستخدم إحدى الاريكتين في قمرة الصالة.

في البدء ابتعد عنها ولكنه لم يلبث أن أخذ يبدي اهتماماً غير عادي بها.. وقد لاحظت، أن هذا الاهتمام ظهر بعد قيامه بزيارة جدتها في المستشفى.. لم يكن قد أخبرها الكثير عن العجوز ولكنها

فهمت من تعابير وجهه أنهما اتفقا، وكان غريباً جداً أن يتجشم عناء زيارة السيدة كيلفير يومياً. غير أن ايلسا كانت سعيدة بما يفعل لأنه بذلك يوفر لها الأخبار عن تقدم صحة جدتها ويحمل الرسائل منها إلى جدتها.

قال السيد هيلفيلد لها بعد عودته من زيارتها في اليوم السادس.

- إنها على ما يرام اليوم.. وهي على استعداد للخروج من المستشفى يوم يسمح لك الطبيب بالعودة إلى المنزل.

- بإمكانها الخروج اليوم، فلدينا خادمة في المنزل.

- هذا صحيح.. لكن السيدة كيلفير تظن أنها ستكون أكثر راحة في المستشفى، فلديها فيها رفقة تغنيها عن الذهاب إلى المنزل الذي لن يكون فيه سوى الخادمة.

هزت ايلسا رأسها وقالت: «لا تختلط كثيراً مع الخدم».

وفيما كانت تشاهد تعابير وجهه، تساءلت ما الذي يسليه هكذا فجأة..

- إذن، لجدتك حصتها من الكبرياء أيضاً؟

رفعت رأسها: «لم لا؟ جدتي سيدة منزل جميل جداً وقديم».

سأل وفي عينيه تلك النظرة الهازئة:

- أهي كذلك؟ حدثيني عن الأمر؟

- إنه منزل يعود بناؤه إلى العهد التيودوري. حوله مزرعة واسعة متصلة به.

برقت عيناه بشكل غريب وقال:

- يبدو مثيراً للاهتمام. ولكن، هل ترعرعك في مكان جميل ومرغوب كهذا يمنحك الحق في تبني مثل هذا الجو المبالغ فيه من الغطرسة؟

اشتد ضغطها على فمها قليلاً.. وومضت عيناها الكبيرتان،

www.liilas.com/vb3

ورفعت كتفيها قليلاً إلى فوق:

- لسنا متغطرستين سيد هيلفيلد.

- جدتك بكل تأكيد ليست متغطرسة.. بل لقد فتنتني، آنسة مايون.. أما انت..

هز رأسه مستنكراً: «فكبرياؤك نوع خاص لا يطاق».

اتسعت عيناها، وقالت ببرود:

- سيد هيلفيلد.. أنا لست مهتمة أبداً برأيك بي..

رد بالبرود ذاته:

- هذا واضح.. ولكن هل نسيت آنسة مايون أنك أنكرت بشدة صفة الغطرسة؟

كان ينظر إلى وجهها المرفوع إليه بطريقة السيد المتفوق.. وصدمها تعاليه، وقسماته النبيلة.. ما هو الدم الغريب الذي يجري في عروقه يا ترى؟ كانت واثقة أنها إن عرفت اسمه الاول، فستعرف هويته.. ما تزال عيناه السوداوان تأسران عينيها. وكانت تحس بقوة شخصيته وبالجاذبية التي تشدّ نظراتها إليه، وبالقوة الآمرة التي تجبرها على الرد على سؤاله.

قالت أخيراً: «أنكر مرة أخرى صفة التعجرف».

ولكن وجنتيها ازدادتا امتقاعاً بسبب ازدياد نظرة الازدراء في عينيه.. وقال لها:

- وغير صادقة ايضاً! كيف لجدتك ان تفشل في تربيتك هكذا.

- أنت بكل تأكيد وقح بكلامك سيد هيلفيلد.

- وأنت لم تردي على سؤالي آنسة مايون.

- لا يمكن لوم جدتي على ما أنا عليه.. إنها مسألة وراثة لا دخل للتربية فيها.

- هذا صحيح، الوراثة لها تأثير كبير.. لكن طريقة التربية لها

تأثير ايضاً في شخصية الإنسان فلو ضربتك جدتك قليلاً على أصابعك بين الحين والآخر، لكنت الآن شابة مرغوبة.

رمشت عيناها وغلى دمها.. لكن، كان عليها ان تتذكر أنها في مركز، وأنه لا بد تحمل ما يكفي من الازعاج في الأيام الستة الباقية بسببها.. وعليها كذلك أن تتذكر أنه أنقذ حياتها.. وما حس به الآن لا يُحتمل. كان على كبريائها في مثل هذه المواقف اتباع الطريق للعرفان بالجميل. ولكنها لم تفعل.. فكرت من خلال الغضب الذي استحوذ عليها، أنه من الاسهل لها لو كان هذا الرجل أقل غطرسة أو أقل ثقة بالنفس فقد كان يمكن، مجرد يمكن، أن تتمكن من إبراز شيء من الشعور الإيجابي نحوه.. ولكن في هذه اللحظة تمردت كبرياؤها لفكرة التنحي لصالح العرفان بالجميل. ونتيجة لهذا ثارت أكثر من عادتها.

تساءلت مرة أخرى من أي بلد يتحدر هذا الرجل، فمن الواضح أن به دماً انكليزياً كما ان اسم عائلته انكليزي بحت. كان يراقبها ثم ضحك فجأة وقال:

- ربما تتساءلين عما اذا كان لدي أولاد، آنسة مايون..

ازداد امتقاع وجهها، لأنها كانت فعلاً تصيغ سؤالها وفي نيتها أن تكشف ما إذا كان متزوجاً أم لا. قدّرت أن عمره يقارب الثلاثين، ولاحظت بضع شعيرات بيضاء وكأنها أشعة فضية تنبعث من شعره الأسود اللماع المتموج..

سمعته يردف: «لا.. بما انني لست متزوجاً فهذا يعني انني لم أختر أن أكون اباً».

أصبح لونها قرمزياً. وحارت لأن هذا ويا للغرابة لم يُثر فيها الازدراء الذي تختبره عادة، فهي تكره سماع الرجال وهم يتحدثون مثل هذا الاستهتار..

www.liilas.com/vb3

قال لها مغيّراً الموضوع بتعبير مفاجىء:

- اخبريني المزيد عن المنزل الفخم الذي تعيشين فيه.. فأنا شخصياً مفتون بالطراز الهندسي النيودوري.

أبعدتها محبتها وحماستها لمنزلها عن العدائية:

- منزلنا مبنيّ حول باحة مرصوفة بالحجر الفحمي.. إنه مبنى نموذجي بالابيض والاسود، نصفه من الخشب.

وطفقت تصف الواجهة والنوافذ الجنوبية التصميم والخندق المائي الذي يحيط بالمنزل.. وأضافت:

- في إحدى الزوايا، هناك مثال رائع للكسوة الخشبية الجدارية المزينة بزهرات رباعية الشكل وهي ما اشتهر به صنّاع «تشيشاير» و «لانكشاير».

- لكنك تعيشين في ديربي شاير؟

- اجل في وادي «دوف».

- إنه مكان جميل جداً.

لم تسأله عما إذا كان قد زار المكان، لأنها فضّلت متابعة الحديث عن المنزل الذي تحبه.

- المدخل إلى منزلنا يمر عبر جسر حجري يقود إلى غرفة عند البوابة.. ثم، لدينا مدخل فوقه ثلاثة طوابق لكل طابق نوافذ بارزة إلى الخارج، وهناك تجد الرواق الطويل فوق الدرج.

ارتسمت بسمة خفيفة على شفتيها ممزوجة بالسعادة والمرح.

- وهذا الرواق لا يبدو في مكانه المناسب ولكن الناس في القرن السادس عشر كان ينفذون الموضة السائدة وإن كانت لا تتلاءم مع سائر أرجاء المبنى. وقد أضاف الجميع رواقات طويلة لعرض اللوحات العائلية بغض النظر عما هو ملائم أم غير ملائم.

لامست التسلية فم المستمع الذي قال:

- يبدو أنه كان لساكني «آردال هال» دوماً مقياساً مبالغاً فيه من الكبرياء. لقد ذكرت لي جدتك «آردال هال» فحدثيني عنه أكثر.

تابعت وصفها، متجاهلة قوله المتعلق بالكبرياء:

- السقوف بمعظمها مزخرفة بالجص وأغلبيتها موشاة بالذهب.. ولدينا بعض البسط الاصلية الجميلة المشغولة يدوياً وهي تكسو جدران غرفة الاستقبال، والردهة الصغيرة.

تمتم يثبت نظره على وجهها: «وغرفتك.. حدثيني عنها».

تورد وجهها قليلاً. وارتفع رأسها بحركة جانبية، كانت بحدّ ذاتها دليل تساؤل.

- وماذا يهمك فيها؟

تردد ثم ضحك، وكان رده العجيب:

- اعتقد أنني رغبت في تصورك وأنت في فراشك.

وعرفت أنه يعني ما يقول.. فزمّت شفتيها وحاولت النطق بما هو لاذع، ولكنها وجدت نفسها مذهولة تقول:

- لقد شاهدتني في الفراش!

- لا.. بل كنت مستلقية فقط فوق مقعد خشبي. هل لديك أحد تلك الأسرة الرباعية العمدان؟

صمتت، تحدق إليه، فقد حيّرها شيء لم تفهمه.. اهتمام هذا الرجل، غير طبيعي.. لم تكن تتوقع مثل هذه الأسئلة من شخص متعال مثله.. ظنته سيترفع عن مثل هذه الاسئلة، ويترفع عن إبراز الاهتمام الذي يصرّ عليه بمنزلها.. وتابع يسألها بمرح:

- حسناً..؟ هل شعرت بالخجل فجأة؟

- الواقع أنني أنام فعلاً في سرير رباعي القوائم..

صمتت قليلاً، ثم أردفت ببطء والفضول بارز في صوتها:

- أهناك ما تود معرفته عن منزلي أيضاً.. سيد هيلفيلد؟

www.liilas.com/vb3

ـ الكثير يبدو لي مثيراً للاهتمام.. الطراز المناسب للمنزل الذي اريده لنفسي.

ـ أتعيش في منزل حديث؟

ـ لا أستطيع القول إنه حديث.. لكنه بالتأكيد لا يملك سحر العالم القديم الذي يملكه منزلك.

ـ أظنك قادراً على شراء منزل مثله سيد هيلفيلد.

فتح يديه: إن هذه المنازل نادرة وقد كادت تتلاشى في السنوات الاخيرة.

ـ وهل فتشت؟

ـ أنا لا أعيش في انكلترا طوال الوقت.

ـ فهمت.. وأين تقيم؟

ـ حين أكون في انكلترا اعيش في «ايسوكس».

كان في نبرة كلامه تحذير لها لئلا تتابع طرح الأسئلة.

* * *

جلست ايلسا في غرفة جلوس «اردال هال» تقرأ لجدتها التي كانت تغزل الصوف مدة نصف ساعة ثم أخفضت ما تغزله حتى ركبتيها، تحدق إلى نقطة ما خلف كتف ايلسا.. التي خاطبتها برقة:

ـ حبيبتي.. أنت لا تصغين اليّ.. هل أتوقف الآن؟ لقد حان وقت الشاي على أي حال.. ما بالك حبيبتي؟ لِمَ ليس عقلك معي؟

نظرت إليها جدتها وعلى وجهها تعبير غريب، فأحست ايلسا بشيء من القشعريرة على طول ظهرها.. لقد اعتادت على هذه النظرات الغريبة التي تشير إلى مقدمة للوصول إلى ما هو غير سار قطعاً. من الواضح أن الجدة قلقة على مستقبل حفيدتها، ولكنها منذ يوم الجمعة الماضية وبالتحديد منذ عودتها من مقابلة أجرتها مع

المحامي وهي تتصرف بشكل غريب.

ردت العجوز عابسة: «أنا قلقة».

ـ قلقة؟

تذكرت حديثها مع الطبيب هذا الصباح بالذات، حين رافقته إلى الباب.

ـ هي ليست في عافية اليوم آنسة مايون، وهذا مؤسف جداً. كانت صحتها عظيمة حتى الآن، إنما يجب أن تُعدي نفسك تدريجياً لما هو أسوأ.

رفعت وجهاً شاحباً إليه:

ـ لا! حبوب الدواء دكتور.. الناس يعيشون لسنوات على الدواء!

ولكنها رأته يهز رأسه، ويرد بلطف: «ليس من هم في الثامنة والثمانين».

وكأنه يردد صدى هاتف إنذار داخلي في نفس ايلسا، بدأ بالانطلاق منذ اسابيع.

ـ أهذا.. نتيجة الصدمة التي تلقتها منذ أسبوعين حين ظنت انني غرقت؟

كانت تطرح السؤال بوجل لأنها تعرف أنه إن قال الطبيب اجل، فلن تتمكن من المغفرة لنفسها.. ولكن الطبيب هز رأسه ثانية باشفاق، يؤكد لأيلسا أن جدتها لم تتعرض لنوبة قلبية خطيرة اصلاً وأنها تعافت بسرعة. لكن، مما لا شك فيه أن حالتها تتدهور، وأن عليها تهيئة نفسها للوقت الذي ستتعرض فيه الجدة للنوبة القاتلة.

ـ كم.. كم من الوقت...؟

ـ يصعب التحديد، لكنها قد تعيش خمسة أو ستة أشهر.

ـ قد تعيش؟

www.liilas.com/vb3

- أعتقد أنها ستعيش هذه المدة ليس إلا.

وبكت إيلسا في غرفة نومها.. بعد قليل نفضت عنها حزنها بعزم قائلة لنفسها بحدة إن الطبيب قد يكون مخطئاً، وإن جدتها ستبقى معها لمدة اطول. إنها المرة الأولى التي تهرب فيها من مواجهة شيء، وترفض التفكير فيه حتى ولو للحظة واحدة.

قطع صوت جدتها الهادىء أفكارها:

- أجل عزيزتي.. قلقة، قلقة بشأننا نحن.

أعادت اهتمامها لحياكتها بتركيز غير عادي.. ونظرت ايلسا إليها بحيرة:

- نحن.. جدتي؟ أنت وأنا؟

هزت العجوز رأسها، ثم انسلّت منها تنهيدة صغيرة.

- علينا الخروج من هنا. المالك يريد استرداده.

ابيضّ وجه ايلسا:

- هو... لا أفهم؟ قلت إنه لك مدى الحياة.

- هذا ما كنت أعتقده.. ولكن الواقع، أن هناك حدوداً للوقت الذي أستطيع فيه أنا وجدك استخدامه.. والحد هو خمسون سنة. ولقد انتهت المدة وعلينا تركه في غضون شهر.

هبط سكون شديد على الغرفة.. وكان كل ما استطاعت ايلسا التفكير فيه، هو تأثير هذا الأمر على جدتها.. فالاضطراب قد يقتلها.

رددت ساخطة اخيراً:

- شهر؟ كيف لهذا الرجل ان يتوقع منا ترك المنزل في شهر؟

- أعتقد انه يتوقع أن نستأجر شقة. وهذا ممكن إذا بدأت التفتيش فوراً.

لاحظت ايلسا، وقلبها يثقل الرصاص في داخلها أن جدتها لا

تزال تركز اهتمامها على عملها الملقى على حجرها.. وتساءلت عما اذا كانت تتعمد إشاحة بصرها بعيداً عنها.

- قلت إن صاحب الأملاك يعيش في اليونان معظم وقته فلماذا قرر فجأة استعادة منزله؟

- إنه هنا في الوقت الحاضر.. ولقد سحره «اردال هال» وقرر العيش فيه...

- أهو في انكلترا الآن؟

أملت ان تراه لتشرح له وضع جدتها الصحي. لكن السيدة العجوز قطعت عليها افكارها لتقول إن الرجل قد قرر نهائياً استرداد منزله. واضافت:

- لقد شاهدته في مكتب المحامي يوم الجمعة الفائت، وقال إنه آسف ولكنه لن يستطيع الانتظار مدة أطول فقد أعيش بحسب رأيه حتى المئة.

ولكن شيئاً ما في طريقة قول العجوز اعطاها انطباعاً بأن ما تقوله غير صحيح. نفضت عنها الحيرة قدر المستطاع وقالت بتصميم:

- سأراه على أي حال جدتي.. وأنا واثقة أنني قادرة على إقناعه بالسماح لنا بالبقاء هنا. أين يمكنني إيجاده؟ لم تذكري أمامي اسمه حتى الآن؟

ران صمت ثقيل على الغرفة، قطعه فجأة رنين دقات الساعة القديمة الطويلة في الزاوية.

- الرجل الذي يملك هذا المكان ايلسا.. هو السيد هيلفيلد.. الرجل الذي أنقذ حياتك والذي تقولين إنك تكرهينه..

نظرت ايلسا إلى جدتها مشدوهة، مصدومة، غير قادرة على التصديق.

- سيد هيلفيلد؟.. مستحيل..! سيد هيلفيلد؟ آه جدتي،

www.liilas.com/vb3

يستحيل أن يكون ذلك المخلوق البغيض مالك هذا المنزل الجميل!

ـ هذا ما اخشاه عزيزتي.. أعترف أنها مصادفة غريبة.

هزّت ايلسا رأسها بعنف، ثم صاحت مرة اخرى:

ـ مستحيل! جدتي.. لا أتحمل مجرد التفكير في أنه يعيش هنا!

ردت الجدة بهدوء: «إنه منزله».

في تلك اللحظة رأت إن جدتها غير متوترة بل هادئة مطمئنة فسألتها والفضول ظاهر في صوتها:

ـ تبدين هادئة.. جدتي.

أجفلت العجوز هذه الكلمات فبدت وكأنها استيقظت على واقع إهمالها لشيء مهم.. فاسودّت عيناها وانطلقت منها تنهيدة أخرى:

ـ هادئة.. ايلسا؟ أنا بعيدة كل البعد عن الهدوء ولكنك تعرفين أن عليّ تجنب الإثارة.. لذلك اقوم بما في وسعي لأمنع نفسي عن الإرهاق.

صمتت لحظة، ثم اكملت ببطء بدا لايلسا متعمداً:

ـ في الإثارة حالياً هلاكي.

اشتدت أوتار قلب ايلسا:

ـ جدتي! لا تتكلمي بهذه الطريقة، أتوسل إليك.. فهذا يؤلمني..

ردت الجدة:

ـ أنا آسفة.. إن آخر ما ارغب فيه هو إيلامك ايلسا.. ولكن علينا مواجهة الواقع.. لا نستطيع البقاء في هذا المنزل، طلبت من المحامي البحث عن شقة لنا ولكن ربما من الافضل لو تبدئين البحث بنفسك..

انقطع صوتها فجأة، وضغطت يدها على قلبها شاهقة:

ـ آه، الحبوب ايلسا.. بسرعة.. بسرعة!

تسارعت نبضات قلب ايلسا بشدة: «جدتي! حبيبتي!»

ـ الدواء! ايلسا، أتريدين أن أموت!

بعد خمس دقائق عاد الهدوء إلى الغرفة.. ولكن ايلسا كانت شاحبة متوترة أشد التوتر. يجب ألا تدفع جدتها إلى مغادرة هذا المنزل! بدأت تقول بعزم: «سأقابل السيد هيلفيلد فأين يقيم؟».

تذكرت أسئلة الرجل المتعلقة ببيتها وتذكرت أنه قال بأن المنزل من النوع الذي يحبه ويناسبه وتذكرت كذلك انها تحدثت عن المنزل وكأنه ملكها. وتلوّت خجلاً بسبب ما قالته وفهمت سبب تلك التسلية الداخلية التي رأتها على وجهه عندما كانت تتحدث عن المنزل.

قالت جدتها إن السيد هيلفيلد ينوي زيارتهما في الصباح التالي وتوسلت إليها السيدة كيلفير حتى تدفن عداءها له وتتصرف معه بلطف. أضافت العجوز:

ـ ولكن من غير المجدي أن تطلبي منه السماح لنا بالبقاء هنا. إنه مصمم على رحيلنا في أسرع وقت ممكن.

قالت وكأنها تفكر بصوت مرتفع:

ـ لقد طرح عليّ أسئلة عديدة عن منزلنا. وكنت شديدة الحماسة.. وقد جعلته يبدو رائعاً، ومما لا شك فيه أنه قرّر فوراً اتخاذه لنفسه.. لقد قال السيد هيلفيلد، إنك سحرته. فلماذا يريد أن يكون قاسياً إلى حد أن يطلب منك ترك منزلك؟

ردّت السيدة كيلفير قائلة:

ـ لا أنكر الإعجاب المتبادل الذي قام بيننا، ولكننا غرباء على أي حال.. ولا مجال للعاطفة في الاعمال.. لقد سبق أن سمح السيد هيلفيلد لنا بتجاوز الوقت المحدد ببقائنا هنا وهذا بحد ذاته كرم أخلاق منه.

www.liilas.com/vb3

- كان سيتركنا في المنزل لوقت غير محدد لولا وصفي لجمال المنزل. ما كان أشدّ غبائي حين قلت ما قلت!

قالت الجدة، يمنطق سليم:

- وكيف لك أن تعرفي أنك كنت تتغنين بمحاسنه امام مالكه؟

- كنت أتحدّث عنه بفخر ولكن لو علمت مع من اتحدث لما تحدثت بتلك الطريقة. ألا تظنين أنه كان عليه الاعتراف بأنه منزله؟

- ربما امتنع عن هذا بسبب تصرفك الجاحد معه.

- هل ذكر لك هذا؟

- اجل.. ذكر ذلك.. وبدا حائراً.

توقفت العجوز عن الكلام هنيهة ثم أضافت:

- أنا نفسي لا أفهم سبب معاملتك له بتلك الطريقة خاصة بعدما أنقذ حياتك.. ألم يكن عليك الشعور بالعرفان بالجميل؟

ردت ايلسا تدافع عن نفسها: «لقد أزعجني منذ لقائي الأول به».

وطفقت تذكر الكلام الذي قاله لها عن «ضربها» فضحكت جدتها وقالت:

- يبدو أن كبرياءك قد تلقت لطمة قوية يا حبيبتي؟

- لقد كرهته..! ثم اطلق عليّ اسم «الآنسة استقلال».

وبختها جدتها بلطف:

- لا أظنك تلومينه على هذا.. ألم ترفضي مساعدته في المرة الأولى؟

- يبدو أنكما تحدثتما مطولاً أثناء الزيارات التي قام بها هذا الرجل؟

اجفلت السيدة كبلغير مرة اخرى.. وعادت إلى حذرها:

- لا عزيزتي.. ابداً.. كنا نتكلم فقط عن عملية الإنقاذ.. كما تعرفين...

* * *

www.liilas.com/vb3

٤ ـ لا تلمسني!

بعد استيقاظها في الصباح التالي بلحظات اصطدمت ايلسا باحساس مزعج.. وما هي إلا لحظات أخرى، حتى صفا تفكيرها، واحتل عقلها صورة السيد ديكون هيلفيلد..

النوم.. يا له من درع حام! ولكن مضى أوان النوم وبعد ساعتين، ستواجه الشخص الذي تكرهه أكثر من أي شيء في العالم، الرجل الذي بمقدوره انتزاع المنزل منها ومن جدتها، المنزل الذي أحبتاه، المنزل الذي يظن الناس أنه سيؤول إليها بالميراث. سيبتهج الكثيرون.. وسيكون معظم هؤلاء من الطموحين الذين تحطمت آمالهم أمام كبرياء ايلسا ومن النساء اللاتي تعتبرها امهاتهن خطراً على بناتهن، وفرصهن للزواج.. وثمة امرأة معينة لن تشعر بالرضى فقط من سقوط ايلسا، بل ستسرّ أشد السرور: ايلما غليمرنيغ..

لم تكن غلطة ايلسا عندما وجّه خطيبها اهتمامه من جمالها الاسمر إلى جمال ايلسا الأشقر. غير أن ايلسا، سرعان ما ارسلته خائباً، وعوضاً عن أن يعود إلى ايلما، صبَّ بلايك غرينوود اهتمامه على فتاة ثالثة، تزوجها، كرد فعل على خيبته، ليلوم فيما بعد ايلسا على زواجه المحطم.

وكأن هذا لم يكفها فوقع سيد، شقيق ايلما بحب ايلسا وتلقى الصدّ نفسه.. فقالت لها ايلما بحقد:

ـ في يوم ما.. ستعانين بسبب ما سببته من أذى للقلوب لقد حطمت حياتي وحياة أخي.

بعد ساعة قالت لها جدتها: «إنه هنا».

كانت ايلسا تجلس في غرفة الجلوس التي تطل نافذتها الجنوبية على البحيرة التي تحدق بها الخمائل الخضراء. شحبت قليلاً.. لم تكن قط مضطرة للقيام بعمل كريه كاصطحاب ديكون هيلفيلد للتجول في أرجاء المنزل. وعدا ذلك كانت تنوي أن توضح له حالة جدتها.

قُرع الجرس الحديدي الثقيل، وترجّع صداه في المنزل.. فتحت خادمة الباب الخشبي الكبير، وتمتمت بشيء. ثم قالت بعد لحظات: «السيد هلفيلد آنسة».

قال بكياسة وهو يتحرك إلى حيث تجلس الجدة:

ـ سيدة كيلفير...

ثم توقف رافعاً يدها بأدب مبالغ فيه، لاثماً إياها. ولمّا تلاقت عيون ايلسا وديكون ومضت عينا إيلسا. كانت قد هبت عن كرسيها شامخة رأسها بكبرياء. التوت شفتا الرجل.. إنها ليست مخطئة ابداً.. فالهدف من معاملته لجدته هو التأثير فيها فقط. هذا الارستقراطي.. ليس من عادته تقبيل يد النساء. إنه بلا ريب يسخر من كبرياء ايلسا بواسطة جدتها. ولكن المرأة العجوز، سحرت بهذه الايحاءة، فأضيء وجهها.

قال للعجوز: «ما أروع أن أراك مجدداً».

واستقام:

ـ كيف تشعرين الآن؟ هل أنت أفضل حالاً على ما آمل؟

ـ في الواقع أجل سيد هيلفيلد. مع أنني حزينة بسبب فكرة الانتقال من هنا ولكنني أفهم مشاعرك وتفهمي لمشاعرك لم يبعد عني

www.liilas.com/vb3

قلقي على العزيزة ايلسا. فالانتقال بالنسبة للطفلة المسكينة سيكون أمراً فظيعاً.

قطبت ايلسا جبهتها لهذا الكلام، واخفضت جفنيها، لئلا تكشف تعابير وجهها.. وسمعته يقول:

- عزيزتك ايلسا...

رفعت بصرها إليه، فواجهت نظرة ساخرة نتج عنها ارتفاع حاد لذقنها.. وتابع:

- إذن، التقينا مرة أخرى آنسة مايون.

طافت عيناه على جسدها كله متفرساً في كافة ثناياه. تذكرت انه نصف يوناني، فتساءلت عما إذا كان معجباً ام لا بالسروال الذي ترتديه.

- وأنت آنستي.. هل انت افضل حالاً؟

ردت بجفاء: «لقد استعدت عافيتي. شكراً لك».

أشارت السيدة كيلفير إلى مقعد:

- اجلس.. أرجوك.. ايلسا.. اقرعي الجرس لطلب القهوة!

هزت ايلسا رأسها إيجاباً، ثم اتجهت إلى حبل الجرس.. وكان المقبض الذهبي في يدها حين استدارت:

- قهوة مرّة سيد هيلفيلد؟

هز رأسه: «ونقيلة».

قالت الجدة بعد احتساء القهوة:

- ستصحبك حفيدتي للتعرف إلى أرجاء المنزل. أود لو أرافقكما ولكن الدرج يتعبني.

هبَّ واقفاً ثم قال: «حسناً، أنا مستعد يا آنسة مايون».

مدت يدها، باشارة لاحظت أنها أسعدته:

- من هنا سيد هيلفيلد.

حين خرجا من الغرفة سألته بجفاء: «أنبدأ بالمكتبة؟».

- يعود الأمر إليك.

التفتت إليه بقسوة، وسألت بعينين متقدتين بغضب مكبوت:

- لماذا لم تقل لي إنك مالك هذا المنزل؟ تركتني أتكلم عنه، وكأنه.. كأنه لنا.

- لو قلت لك إنه لي لما وصفت جماله وجاذبيته بتلك الطريقة.

كان ينظر إلى الردهة الكبيرة التي يقفان فيها، وبالأخص إلى المدفأة الضخمة.. وقال:

- يبدو أن هذه المدفأة قد أضيفت مؤخراً لأنها صنع «ويستماكوت» في القرن التاسع عشر. وستجدين المزيد من هذه التماثيل في الهايد بارك.

التفتت إليه بسرعة، وقالت ساخرة: «أراك خبيراً».

- أنا عادة لا أغمض عيني عن شيء آنسة مايون. أين هي هذه المكتبة التي تريدين أن أراها؟

يا لأخلاقه! إنها تكرهه.. دفعت باباً من السنديان السميك إلى الداخل وخطت إلى جانب ثم أشارت إليه أن يدخل قبلها، ولكنه تركها تسبقه وقالت له:

- هذه هي.. ستجد نسخاً أخرى من هذه الكتب على رفوف كتب قصر وستمنستر.

أدهشها مرة أخرى بقوله:

- أجل.. إنها من تصميم بيوجين، بالطبع.. بامكان أي كان أن يلحظ هذا..

تقدم إلى الرفوف التي تغطي أحد جدران الغرفة المرتفعة السقف، ووقف وقتاً طويلاً يقرأ عناوين بعض الكتب المجلّدة بالجلد الاصلي.

www.liilas.com/vb3

تحركا اخيراً من المكتبة، متجهين إلى غرفة الطعام المزينة بالعديد من اللوحات الجميلة. راحت تصغي ورفيقها يعلق على ميزات اللوحات المختلفة.. ثم سار إلى النافذة حيث وقف ويداه في جيبيه، ينظر إلى الخارج.

استدار إليها يسأل: «ما هي تلك المنطقة الحرجية؟».

- إنها احراج «بورز».

- وأين هو النهر؟

- إنه من هذه الجهة، إلى الغرب. يمكنك رؤيته من جهة الغرف.

- والنهر الآخر.. «ديروفت؟» انه في هذه الناحية، طبعاً؟

هز رأسه وأجاب نفسه: «هو إلى الشرق».

ردت ايلسا بسخط لا مبرر له: «أرى أنك على معرفة بالمنطقة».

قال ببرود:

- أملك أراضي كثيرة في هذه الاجزاء.. غراتيمور هال وكل ما يحيط بها من اراض هي لي..

هزت رأسها وقالت: «لم تقم بما يجب للعناية بالقصر سيد هيلفيلد».

استدار، ينظر إليها من فوق.

- وماذا كنت تودين أن أفعل به آنسة مايون؟

تورد وجهها بسبب لهجته، لكنها رفعت رأسها تقترح متحدية:

- كان عليك ترميمه.

- أتقترحين أن أسكن فيه؟

ترددت قليلاً، ثم قالت بقرار مفاجيء.

- سيد هيلفيلد.. أنت تعلم أن جدتي مريضة والطبيب يتوقع أن تعيش ما لا يزيد عن ستة أشهر. ولقد عاشت هنا أكثر من خمسين

سنة، وفي اعتقادها أن المكان لها مدى الحياة، لكنها اكتشفت مؤخراً أن هذا غير صحيح. فهل تعطينا إنذار بالترك؟

- لقد أعطيتكما بالفعل انذاراً بالترك.

نظرت إلى يديها القابضتين بشدة أمامها.

- لن تنتظر طويلاً سيد هيلفيلد.. ليس حسب رأي الطبيب.

- حسب رأي الطبيب؟ هل توضحين لي قصدك آنسة مايون؟

ابتلعت غصة مفاجئة في حلقها.

- لقد قال ستة أشهر.. لكنني آمل أن يكون الوقت أطول من هذا. ليتها تعيش سنوات.

ابتلعت ريقها مرة اخرى، واخفضت رأسها.. مد الرجل يده ويا للدهشة يرفع لها رأسها، لكنها أبعدت يده فوراً، وعيناها تقدحان شرراً بسبب رفعه الكلفة بينهما.. صاحت:

- كيف تجرؤ على لمسي؟

تصاعد الدم إلى وجنتيها، وكأنما أرادت ان تمسح آثار الملامسة فمسحت يدها بحدة تحت ذقنها.

اشتعلت عيناه. ولاحظت الدم اليوناني فيه، الدليل المتوحش الذي كان حتى الآن مغطى بغلالة من اللطف الغربي.. ثم سرعان ما تبدلت ملامحه وعادت البسمة الساخرة وقال بثأر واضح:

- ألست سخيفة؟ لقد لامست اكثر من ذقنك بكثير.. الا تذكرين؟

كان يقصد أن يحرجها، ونجح.. فتوردت من عنقها حتى جبهتها. وأشاحت بعينيها عن عينيه الممعنتي النظر فيها وقالت بصوت مخنوق:

- هل لنا أن نتابع جولتنا سيد هيلفيلد؟ في جهة المنزل الأخرى غرفة الاستقبال الصغيرة.

www.liilas.com/vb3

لزم السيد هيلفيلد الصمت وكانت ايلسا تكافح لتضبط نفسها، وتستعيد وقارها.

كانا في الطابق العلوي يتأملان القنطرة العائد تصميمها إلى العصور الوسطى، عندما نقل اهتمامه إلى منحوتة رائعة تعرض أسلحة العائلة التي تكرمت على زوج السيدة كيلفير بهذا المنزل. العائلة التي ورث منها السيد هيلفيلد كل الأملاك الواسعة في «ديربي شاير». راقبته ايلسا عن كثب وهو يتأمل شعار النبالة، ثم التفت اخيراً ينظر إليها:

ـ أتعرفين ما هذا كله؟

جذبت انفاس رضى لأنها وجدت أن هناك ما يجهله.. قالت بحدة وتشامخ: «بكل تأكيد، أتريد أن أشرح لك؟».

ابتسم لها: «نعم إن سمحت».

ـ تصف الحقل في البداية، ثم المبادىء بالتدريج، وهي هنا عصبة أفقية وسط الشعار. ثم تصف الرموز الأقل شأناً بالنسبة للنبلاء.

ثم تابعت الشرح وكان هو مصغياً لها. حين انتهت قال بطريقة تدل على انه كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء شيء ممل.

ـ هناك فجوة في العصبة بين النمرين الاساسيين محمية وكذلك في اسفل الزيّ الازرق.. وثلاثة سنونوات خضراء اللون.

احمر وجهها وكأنها تعرضت لتهكمه.. وتصاعد الغضب فيها، والتمعت عيناها، وبدا ذلك واضحاً في فتح واقفال قبضتيها ببطء. وسألت:

ـ أكان هناك حاجة لسخريتك؟ قلت إنك لم تفهمها!

هز رأسه بتشامخ، رافعاً حاجبيه.

ـ وكيف يمكن ألا أفهم شعار عائلتي؟ غير ممكن... سألتك

فقط عما اذا كنت تفهمينه ام لا.

حدجته عيناها بنظرة شاملة ملؤها الازدراء.

ـ أنت خبير بتحويل الكلمات، سيد هيلفيلد!

وكان الرد القاطع:

ـ وأنت بارعة في شرح جملة واحدة بكلمات عديدة. أنا لم أطلب منك معاملتي كأبله، آنسة مايون.

ـ سألتني إن كنت اعرف معناها. فأوحى إليّ سؤالك أنك لا تعرف شيئاً عنها!

نظر إليها بهدوء وقال:

ـ الحاصل آنسة مايون، أنني استخدمت شعار العائلة لسنوات. ستجدينه غير ظاهر كثيراً، لكنه موجود على مقدمة سيارتي.

قالت ببرود:

ـ هل لنا ان نعود إلى جدتي؟ لقد تركناها مدة طويلة.

لمعت عيناه بحيرة قبل أن يقول:

ـ أتتراجعين ثانية، آنسة مايون؟

ـ لن أبقى معك أيها السيد لأتبادل معك الكلمات الغامضة.

نظر إلى وجهها المتورد، ولاحظ الشرر في عينيها الخضراوين.

ـ الكبرياء والعجرفة والطبع السيء.. هل لديك صفات كريهة أخرى عدا هذه آنسة مايون؟

ـ قد تتساءل جدتي عما تفعله سيد هيلفيلد.

ـ نعم نسيت الفظاظة. أنت دون شك خيبة أمل جدتك الكبرى.

ردت، وهي تتحرك باتجاه باب غرفة الجلوس:

ـ جدتي راضية كل الرضا عني.

لكن رفيقها منعها من الوصول وقال:

ـ ألديك فكرة عن سبب رغبتي في رؤية انطباعك منذ قليل حين

www.liilas.com/vb3

كنت تقولين إنك تريدين أن تعيش جدتك معك سنوات.

نظرت إليه بارتباك وهزت رأسها:

ـ لا.. لا أدري عم تتحدث؟

ـ رفعت رأسك..

ثم صمت ففهمت قصده!

ـ لم أفعل ذلك مزاحاً كما اعتقدت.. أردت فقط أن ألاحظ نظرة هاتين العينين الجميلتين.. لا.. لا تقاطعيني! إنهما جميلتان وقد قيل لك ذلك أكثر من مرة.

ـ وكيف تعرف هذا؟

ـ أخبرتك أنني سمعت كل شيء عنك في النادي.

قالت بعد توقف قصير:

ـ لقد غيّرت دفّة الموضوع سيد هيلفيلد.. كنت على وشك أن تقول شيئاً عن شكلي حين ذكرت رغبتي في أن تعيش جدتي سنوات.

ـ لحظتئذ لم يكن في عينيك أثر للكبرياء والعجرفة آنسة مايون.. بل شيء أظهر لي مدى حبك العميق تجاه جدتك كما أظهر لي أن هناك ما هو جذاب..

صمت، يحدق إلى الفضاء.. وقطبت ايلسا بحيرة. وراقبته، ورأت أن عجرفته كذلك اختفت فجأة، ولكن قوة شخصيته ظلت ثابتة تنبعث منه، وكأنها تنبعث من إله وثني اغريقي قديم.

استدار ليضع يده على قبضة الباب النحاسي اللماع، بعدما استجمع شتات نفسه.

ـ هل لنا أن ندخل يا آنسة؟ جدتك قد تتساءل عما نفعل.

دفع الباب يفتحه، وتنحى جانباً فدخلت ايلسا، وأثناء دخولها أحست بنفسها تصطدم به وامتلأ انفها برائحة ذكرتها بالأرض الواسعة

في الخارج وبأزهار الخليج والصعتر البري.. رفعت رأسها تنظر إليه، فابتسم وعندها حبست أنفاسها بلا سبب. شعرت بتأثير غريب لم تعرف له سبباً.. اعترفت أنه رجل يملك قوة هائلة وسلطة.. وأنه نموذج قاس للرجولة لم تشهد مثله قط فجميع الرجال أمامه يتلاشون إذا ما قورنوا به.

لماذا تتذكر كل هذا الآن؟ تساءلت وهي تراقبه يقفل الباب وراءه. ما أطوله! وما أشد نحوله! فله كتفان عريضتان وعضلات قوية مختبئة، وطاقة مكبوتة.. وقوة.. أهي قوته التي كانت تثير أعصابها هكذا؟

نظر إليها بحيرة: «ما الخطب؟ ألا تريدين الجلوس؟».

ـ بلى.. بلى.. بالطبع.

سألت جدتها بعدما جلسا:

ـ حسناً.. كيف وجدت منزل المستقبل سيد هيلفيلد؟

ابتسم: أنا سعيد به.

نقلت ايلسا نظرها من الواحد إلى الآخر وقد ضاقت عيناها.. في الأمر ما هو غريب. قالت: «تبدو وجدتي وكأنكما صديقان قديمان».

ردت الجدة: «لقد تصادقنا في المستشفى».

ـ في أربعة أيام؟

نظر ديكون هيلفيلد اليها وقال:

ـ أجل آنسة مايون.. في اربعة أيام.. بعض الناس ينجذبون إلى بعضهم بعضاً.

قالت ايلسا ببطء وحذر:

ـ مع ذلك سيد هيلفيلد ما زلت ترغب في إخراجها من منزلها؟

ـ ايلسا حبيبتي، لا تنسي أن السيد هيلفيلد بحاجة إلى منزله.

www.liilas.com/vb3

قال يذكرها بلطف: «ولقد انتظرت طويلاً».

كان عليها رغم كرهها للرجال الاعتراف بأن لا سبب يدعوه مهما كان إلى التخلي عن حقه في المنزل.. وهي لا تلومه على رغبته في «اردال هال» ذي العوارض الخشبية المزخرفة وغرفه الحميمة التي لها جميعاً مدافىء واسعة مناسبة لإشعال الحطب فيها.

غير أنها عادت فتنهدت: «فرغم كل ذلك، كان بإمكانه الانتظار قليلاً» اخذت تراقبه وتراقب الجدة وهما يتحدثان بهدوء معاً في ناحية الغرفة الأخرى.. وأكملت لنفسها: «لقد اخطأت القول بأنني آمل ان تعيش جدتي معي سنوات أخرى فمن الطبيعي ألا يرغب في الانتظار سنوات».

قطعت ايلسا أفكارها، بعدما أدركت انهما ينظران إليها.. وهبط على الغرفة صمت ثقيل غير مفهوم.. وأصبح الجو متوتراً.. أخيراً جاءها صوت جدتها متردداً قليلاً ولكن فيه الرجاء.

ـ لدي السيد هيلفيلد حل لمشكلته ومشكلتنا، ايلسا.. لقد.. اقترح.. أن تتزوجيه.

* * *

٥ ـ الصفقة

ـ أتزوجه!

نطقت الكلمة مصعوقة. ثم جلست فاغرة فاها، صامتة، تنظر إلى الرجل الذي تقدم بالاقتراح.. ما أهدأ أعصابه! يجلس هناك وكأنه يتسلى بمرح كسول وعلى شفتيه طيف ابتسامة.. ثم تكلم اخيراً، بلهجة اعتذار غير خالية من التسلية:

ـ أخشى، ألا يكون هذا الاقتراح رومانسياً كما طرحته جدتك..

قاطعته العجوز على عجل:

ـ أنا آسفة سيد هيلفيلد.. لقد تكلمت بدون أن أفكر.

مد يديه مطمئناً، وابتسامته تزداد عمقاً: «لا أهمية لهذا».

التفت إلى ايلسا وتابع:

ـ كما كنت أقول آنسة مايون.. إنه طلب يد غير رومانسي. غير أنك دون شك أدركت بسرعة خاطرك أنه اقتراح عملي ليس إلا.

نظرت ايلسا إلى جدتها بريبة.. تتذكر لامبالاتها وهي تتحدث عن ترك المنزل... لقد سبق أن ارتابت بهذا الا أن السبب لم يكن معروفاً لها أما الآن فباتت تعرفه.. قالت:

ـ لقد تباحثت وجدتي هذا الاقتراح قبل اليوم؟

انها الآن أهدأ حالاً فهي في لحظة كانت تبعد عن تفكيرها سخف هذا الحل وفي الاخرى كانت تفكر في جدتها فقط، وفي تأثير

www.liilas.com/vb3

الانتقال من منزلها الحبيب عليها. إن أية إثارة غير ملائمة، ستكون خطيرة بلا أدنى شك. ولكن إن بقيت هادئة غير منفعلة فقد تعيش ستة أشهر.. كانت النتيجة النهائية لهذا التفكير المنطقي بالنسبة لأيلسا هو انها الوحيدة القادرة على إطالة عمر جدتها أو قطعها في وقت قصير.

قالت السيدة كيلفير، تهز رأسها بنشاط:

ـ من أين لك مثل هذه الفكرة عزيزتي ايلسا؟

التفت عينا ايلسا بعيني الرجل الطالب يدها. كانت عيناه تبتسمان أما عيناها فكانتا تومضان وتضيقان.

قالت بلطف: «وجهت إليك السؤال».

رد بلطف مماثل: «ونابت جدتك عني بالإجابة. أتشكين في كلامها؟».

ردت بصوت منخفض، وعيناها لا تفارقان وجهه:

ـ انت ماهر في المراوغة سيد هيلفيلد مهارتك في تحوير الكلام.

ضحك، ثم التفت إلى جدتها التي بدت حائرة.

ـ تشير الآنسة مايون إلى حادثة صغيرة غير مهمة وقعت بيننا للتو...

التفت إلى ايلسا، وقال بعد توقف قصير:

ـ حسناً؟ هل ستتزوجينني!

ما أشدَّ ثقته بنفسه! وكأنه متأكد من قبولها لأنه يعلم جيداً أنها تضع صحة جدتها فوق أي اعتبار. اذن.. هذا هو سبب وثوقه..! تحركت الكبرياء.. سينال الآن هزيمة نكراء.

ردت عليه بغطرسة: «لا، لن أتزوجك! كنت سخيفاً حينما فكرت في هذه الفكرة».

ثم صمتت لأنها لاحظت أن وجه جدتها قد شحب وأن يدها قد استقرت على قلبها: «جدتي».

وشهقت العجوز: «لا تخافي عزيزتي».

سرعان ما هبّ ديكون هيلفيلد واقفاً وأصبح قربها، يسأل بلهفة: «هل هناك ما أستطيع فعله؟».

هزت العجوز رأسها: «ستحضر ايلسا الدواء، آه. أحس بألم شديد».

كانت ايلسا تغادر الغرفة، وهي تفكر هل تمثل جدتها دوراً؟ وأخذت تفكر ملياً وهي تسرع الخطى في الممر. ولكنها في اللحظة التالية وبّخت نفسها على شكّها. فكيف لا تتأثر صحة الجدة بعد رفضها الوقح أن تفكر بعرض السيد هيلفيلد.

حملت الدواء إلى جدتها التي تناولت منه حبتين.

ـ هاك حبيبتي، اشربي قليلاً من الماء.

نسيت ايلسا وجود زائرهما النصف يوناني الذي دخل حياتهما وكدّر صفوها، فقد انصبّ اهتمامها كله على المرأة التي ربتها والتي أحبتها. ليس لديها شخص آخر غيرها تحبه.. حين ترحل ستصبح وحيدة في العالم.. قطعت هذه الافكار المكدرة، لتتمتم بنعومة:

ـ المزيد من الماء حبيبتي.. هكذا أفضل.. والآن، أترغبين في الاستلقاء؟

كان صوتها رقيقاً ولمستها ناعمة. أثناء انشغالها بحالة جدتها لم تلاحظ التعبير الغريب في عيني ديكون هيلفيلد السوداوين، ولم ترَ عرقاً في منتصف عنقه ينبض ولم تنتبه إلى أنه يبتلع ريقه بصعوبة، وكأنه يعاني من ألم يمنعه من الكلام.. قالت العجوز:

ـ لا يا عزيزتي، لن أستلقي.. فأنا بخير الآن.. لا تجزعي إلى هذا الحد حبيبتي.. لن أتركك إلا بعد حين.

www.liilas.com/vb3

ـ جدتي، يا أعز الناس.. لماذا تتكلمين هكذا؟

تجمعت الدموع في مآقيها، واختفى كل أثر للكبرياء. في هذه اللحظة الحرجة استقامت، تنظر إلى وجه الرجل الواقف هناك، على مقربة منها... ورأت تعبير وجهه، وعرفت أن عينيه تراقبان شحوبها ودموعها المعلقة على أهدابها. فسارعت لمسح هذه الدموع بظاهر يدها، ترفع رأسها في الوقت نفسه لتسمح لبريق الكبرياء بالدخول إلى عينيها.. وبدا أن الرجل أجفل، وكأنه أصيب بضربة حادة.. فابتعد عنها وقال دونما عاطفة:

ـ سأذهب الآن.. آمل يا سيدة كيلفير، أن تتحسن حالتك قريباً.

رفعت المرأة رأسها، وابتسمت عيناها له.

ـ أنا بخير.. ألم أقل إنني افضل حالاً؟

التفتت إلى ايلسا:

ـ رافقي السيد هيلفيلد إلى الخارج عزيزتي... وانا آسفة سيد هيلفيلد، لأننا لن نصبح أقرباء. كانت فكرة ممتازة، إنما عليك اعتبار قرار ايلسا نهائي، سنخرج من المنزل في غضون شهر.. أعدك..

بدا وكأنه تردد، ثم شاهد التعبير المتلاشي في عيني العجوز، فهز رأسه وقال:

ـ شكراً لك سيدة كيلفير.. أنا مسرور لأنك لا تكنين لي مشاعر كره بسبب هذا الأمر.

وسار بكل شموخ، تلحق به ايلسا.. قالت له حالما وصلا إلى الباب الامامي:

ـ سيد هيلفيلد.. ألا يمكنك الانتظار مدة أطول؟

نظرت إلى وجهه تتساءل عما إذا كان هناك ما قد يغيب عنه، ثم أردفت:

ـ أنت وجدتي منسجمان إلى درجة لا أكاد معها أصدق أنك ستجبرها على ترك منزلها في غضون شهر.

ـ أنا بحاجة إلى منزل آنسة مايون. تقولين انك تأملين أن تعيش سنوات.. وهذا ما آمله ايضاً بيد أنني لا استطيع انتظار سنوات حتى استردّ منزلي. وانت توافقين أن من غير المنطقي ألا أرغب في هذا المنزل.

هزت رأسها إيجاباً وابتلعت ريقها، وقالت وهي تجد صعوبة كبيرة في كبح كبريائها:

ـ يقول الطبيب إنها لن تعيش سوى ستة أشهر.

ـ لكنك تأملين أن تعيش سنوات.

ـ قد لا تتحقق آمالي.. أنت لن تنتظر أكثر من ستة أشهر «سيد هيلفيلد».

هز رأسه: «أكره أن أجلس منتظراً موت شخص ما. لأحصل على ما أريد آنسة مايون.. لقد قلت منذ برهة انني آمل أن تعيش جدتك سنوات وأنا أعني ما أقول، لذلك، يجب أن أحصل على منزلي الآن.. فرجاء تفهمي دوافعي».

هزت رأسها شاردة الذهن.. وعيناها على البركة التي يتصاعد من وسطها نافورة ماء. قال الرجل إلى جانبها وقد شعر بشرودها وعذابها:

ـ فكري في عرضي.. فلن يكون منفراً لك، بكل تأكيد؟

رفعت نظرها إليه، ولوت ابتسامة شفتيها:

ـ زواج مصلحة.. لم أصدق قط أنها تحدث في الحياة الواقعية.

قال بجدية: «هي تحدث غالباً في بلاد أمي، فهناك نادراً ما يتزوجون بدافع من الحب».

www.liilas.com/vb3

- وهل هي زيجات ناجحة؟
- ناجحة جداً.
ساد صمت طويل. أحست مرة أخرى أنه يعرف ما يجول في تفكيرها.
- هذه الزيجات التي تتحدث عنها.. أهي.. زيجات طبيعية؟
لم يظهر على وجهه أقل تأثر، ووجدت نفسها ممتنة لأنه لم يضحك أو يُظهر إحدى ابتساماته الساخرة.
- العلاقات طبيعية.. أجل.. ولكن زواجنا، من ناحية أخرى، سيكون زواج مصلحة. في الواقع سيكون.. صفقة تجارية.
سألته حينئذ السؤال الذي كان على طرف لسانها منذ البداية:
- ولماذا تريد الزواج بي سيد هيلفيلد؟
رد بصراحة: «ثمة أسباب عديدة منها عدم رغبتي في إخراج جدتك من منزلها.. والآخر أنني لا أحب أن تخرجي أنت ايضاً.. أنت تعلمين أن جدتك قلقة على مستقبلك».
- لا شك أن جدتي ذكرت لك هذا القلق.
- ذكرته صدفة حين زرتها في المستشفى.
- كانت صدفة غريبة.
- ماذا ستفعلين بعد رحيل جدتك؟
- سأعمل وعليَّ أن أجد عملاً في أسرع وقت على أي حال.
صمت لحظات ثم كرر: «فكري في عرضي».
وسألته ثانية عن دوافعه للزواج بها فأجاب:
- حسناً.. من الواضح، أن السبب هو تأمين سيدة للمنزل. فليس هذا المنزل بمنزل أعزب. إنه مصنوع لتعتني به امرأة. بل إنه يصرخ مطالباً بهذا.
نظرت إليه بسرعة والدهشة في عينيها، وقالت: «أنت عاطفي».

وكأنها تقرر شيئاً غير معقول: «أظنني هكذا.. بطريقة ما».
أخذت تتساءل عما إذا كان هناك جانبان لطبيعته.. فقد سمعت أن لليوناني جانبان دوماً ففي لحظة قد يكون لطيفاً وفي أخرى قد يصبح وحشياً عدوانياً.
أردف يقول: «أشعر بأن هذا المنزل بحاجة إلى لمسة امرأة، وقد ظل لسنوات طوال اهتمام جدتك هذا عدا اهتمامك.. كم من الوقت؟»
نظرت إليه:
- أنا في الثانية والعشرين.. أعتقد أنك تعرف عمري سيد هيلفيلد، فلا يبدو أن هناك ما لم تخبرك به جدتي.
لم يقل شيئاً ليرد على هذا ولكنه لم ينظر إليها كذلك.. عرفت غريزياً، أنه طرح الكثير من الأسئلة على جدتها.. أسئلة تلقى الرد عنها بلا تردد.. اخيراً قالت بلهجة مرتجفة:
- لا أظنك ستجد السعادة مع علاقة كهذه.
ثم صمتت، وأحست بأنه يفهم كل شيء عنها.. قال:
- لن أكون سعيداً مئة بالمئة، إنما سأكون راضياً.
تذكرت قوته حين كانا على المركب كما تذكرت قساوته، ورجولته..
- هل ستكون راضياً؟
سألها بلطف: «وهل تفكرين في عرضي؟».
- لا.. لا أفكر فيه.. وداعاً سيد هيلفيلد.
نزل السلم، ثم التفت فإذا وجهه الآن في مواجهة وجهها وقريب منه أيضاً حتى كادت تحس بأنفاسه الباردة على خدها.
- إن كنت خائفة من أن أحنث بكلمتي بشأن العلاقة.. فلا تخافي فأنا رجل شريف آنسة مايون.

www.liilas.com/vb2

وما إن أتم الجملة حتى أسرع يمضي. أما هي فظلت واقفة حتى أصبح داخل سيارته.

أغلقت الباب وعادت إلى غرفة الاستقبال، حيث وقفت قليلاً قبل أن تدخلها.

- كيف أنت الآن جدتي.. أتشعرين بأي ألم؟

- لا عزيزتي.. أنا بخير..

جلست ايلسا وعلى وجهها تعبير كئيب.

- أنا آسفة جدتي.. لأنني لم أستطع حل مشاكلنا بهذه الطريقة.

- لا تفكري في الأمر. سنتدبر أمرنا بطريقة ما.

- أحس بالذنب.

- لا، لا تشعري بالذنب، على كل حال، لماذا عليك التضحية من أجلي؟ أنت لست مدينة لي بشيء، حبيبتي.

نظرت ايلسا إليها بسرعة، ففي هذه الجملة تلميح إلى أن ايلسا لا تدين لها فعلاً بشيء، غير أن الجدة عادة لا تذكر شيئاً كهذا. فربما تشعر العجوز بالغضب لأنها رفضت الزواج بديكون هيلفيلد.. وربما تحس أن على حفيدتها أن تكون مستعدة لتضحية ما عرفاناً بالجميل لما فعلته لها. عضت على شفتها بقسوة تفكر في الحياة الرائعة التي نعمت بها.. أجل.. إنها مدينة لجدتها.. إنما الزواج برجل مثل ديكون هيلفيلد فيستحيل عليها التفكير فيه.

قالت ايلسا: «أنا لا أثق به فقد لا يحافظ على وعده».

- وعده عزيزتي؟

- وعده بأن يكون الزواج صفقة. فقد يحاول.. يحاول..

وصمتت، تحني وجهها المتورد.

- أتظنين أنه قد يرغب فيك زوجة كاملة؟

عندما هزت رأسها طفقت جدتها تؤكد لها أن السيد هيلفيلد لن

يراجع أو يحنث بوعده وسألت ايلسا، كيف لها أن تتأكد من هذا، فقالت:

- لا أراه رجلاً يعيش حياته.. حياة.. نساك، إلى الأبد.

خرجت منها الكلمات وهي مطأطئة الرأس ولما رفعت رأسها سمعت جدتها تقول:

- يا لك من خجولة ليس مستغرباً أنه..

وصمتت، ثم أمسكت بالكوب الذي وضعته ايلسا قربها، لتشرب الماء منه. سألتها ايلسا، باهتمام مفاجيء. «ما هو غير المستغرب؟».

هزت الجدة رأسها، وغيرت الموضوع سائلة عما إذا كان الغداء جاهزاً. وأضافت: «أنا جاهزة لتناوله».

ولكن هذا لم يخدع ايلسا.. فجدتها لا تتمتع ابداً بالغداء إذا تم لها قبل الساعة الواحدة.

بعد ظهر ذلك اليوم عاد الموضوع للظهور، بعدما تجنبتاه وقت الغداء، وقد حدث ذلك حين كانتا في الحديقة تحت ظل الأشجار. قالت العجوز فجأة:

- أنا لا أقول هذا وفي نيتي التأثير فيك ايلسا.. بالنسبة لمخاوفك فلا أراها في محلها لأن السيد هيلفيلد سيشرف ما يقطعه لك من وعود.

- ذكر شيئاً كهذا. قال إنه رجل شريف.

هزت العجوز رأسها: «لا شك في ذلك».

- أراك تحبينه فعلاً.. يبدو أنه فتنك كما فتنته أنت.

- أعترف أنه فتنني.. أترين ايلسا.. بعدما عشت هنا هذه السنوات كلها أرى أن من الطبيعي أن أهتم بمن سيعيش فيه بعد رحيلي. فأنا أكره أن يذهب إلى من لا يعجبني.. أعرف انه لا

www.liilas.com/vb3

يعجبك، إنما لا أفهم السبب.. على أي حال، أظنك ستعترفين رغم بغضك له أنه ذو مركز ونبل يتماشيان مع هذا القصر.

ابتسمت ايلسا، وقالت لجدتها:

ـ لقد أصبحت سيدة تنتمي إلى الطبقة الارستقراطية جدتي.. ماذا كنت قبل هذا؟

غمزت بخبث: «كنت أسبب الصداع لوالدي وأخجل أن أقول، إنني كنت اخادعهم دوماً».

ـ تخادعينهم؟

ـ كنت الفتاة الوحيدة بين سبعة أخوة.

ـ لا أتصورك تقومين بأعمال شريرة يا جدتي.

ـ ولا أنا، ليس الآن، لقد زوجني والداي جدك حالما تجاوزت السادسة عشرة! وقال والدي بعد الزفاف مباشرة «ليساعدك الله يا بني» وأضاف انه سيدعو الله ليخفف عنه.

ـ آه، ما أفظع ما تقولين. لكنني واثقة أنك لم تكوني بهذا السوء!

ابتسمت العجوز بمحبة:

ـ أنت مخلصة لي عزيزتي ايلسا..

تبع قولها صمت طويل قبل أن تضيف:

ـ يجب ألا تفقدي صبرك عزيزتي إن ذكرتك مرة أخرى بأنني قلقة على مستقبلك، فأنا لا اتحمل التفكير في أن تصبحي بلا بيت بعد رحيلي.

أشاحت ايلسا بوجهها عنها تعض على شفتها.

ـ سيكون لي شقة بعد شهر.

ـ أعتقد هذا.. إنما أرجو ألا يُمرضني الرحيل، أكره أن أصبح عبئاً عليك..

ـ جدتي، حبيبتي، أرجوك توقفي.. لن تكوني أبداً عبئاً عليّ.

ولكن ايلسا، ظلت تفكر في كلام المرأة العجوز.. وفي إمكانية أن يمرضها الانتقال.

صاحت فيما بعد، وهي بمفردها في غرفتها:

ـ ماذا سأفعل؟.. أعرف ما يجب أن افعل وما يدفعني ضميري إلى فعله..

ديكون هيلفيلد رجل يحافظ على وعده كما قالت الجدة وهذا يعني أن عليها ألا تخاف من الزواج به. فالزواج سيحل مشاكلها ومشاكله أيضاً.. إنه بحاجة إلى امرأة لمنزله.. مع أن هذه المشكلة لا تهم ايلسا مطلقاً بل ما يهمها هو مستقبل جدتها.

بعد ظهر اليوم التالي ذهبت إلى بلدة «باكويل» للتسوّق ومن هناك توجهت إلى مقهى ترتاده دوماً حين تكون هناك، طلبت الشاي من الساقية المبتسمة، التي قالت إن المكان مزدحم أكثر من عادته..

غابت الساقية وما هي إلا دقائق حتى كانت ساقية أخرى توصل شابة انيقة إلى كرسي فارغ قبالة ايلسا. قالت الساقية:

ـ أنا آسفة.. ولكنك مضطرة لمشاركتها الطاولة. فهل من مانع؟

ردت الفتاة التي نظرت إلى ايلسا بانتصار:

ـ ابداً.. فنحن نعرف بعضنا بعضاً.. وبامكاننا تبادل الحديث.. أليس كذلك ايلسا؟

ردت ايلسا بغطرسة: «كيف حالك ايلما؟ أراك بصحة جيدة».

جلست الفتاة وأخرجت مرآة من حقيبتها:

ـ شكراً.. لا أستطيع قول الشيء نفسه عنك ايلسا.. فأنت أشد شحوباً من العادة.. وأراك قلقة. أثمة خطب ما في «آردال هال»؟.

سألتها ايلسا بعجرفة: «وما الخطب الذي قد يكون هناك».

ـ آه هناك شائعة تقول إنك مضطرة إلى ترك المنزل وإن المنزل

www.liilas.com/vb3

ليس ملكاً لجدتك أبداً.. كانت تعيش فيه كنوع من الإحسان.

تطاير شرر الغضب في نفس ايلسا.. وبرقت عيناها كالزمرد. كيف انتشرت هذه الأخبار؟ سرعان ما فكرت في ديكون هيلفيلد، ثم صرفت الفكرة.. لا.. لا بد أن الأخبار جاءت من مصدر آخر. لكن من هو؟

قالت، دون أن تفقد شيئاً من عجرفتها: «لا أظنني أفهمك».

- بل تفهمينني نعم الفهم ايلسا.. ما زلت متكبرة حتى الآن. لكن، لن يكون لك شيء تفخرين به بعد شهر. أفكر، كيف كان الناس هنا، ينظرون إليك وإلى السيدة كيلفير، على أنكما مالكتا أكثر المزارع ازدهاراً في المنطقة. ويا للأسف! قلت لك مرة إنك ستعانين بسبب ما قمت به من تحطيم للقلوب، خاصة قلبي وقلب أخي حسناً يا صديقتي.. الآن ستعانين.. ستضطرين إلى العمل لتعيشي.. وماذا يمكنك أن تعملي، لست أدري.. فأنت لا تعرفين حتى كيف تستخدمين منفضة غبار!

ردت ايلسا بعد صمت قصير: «لا أفهم من أين حصلت على هذه المعلومات عن شؤوننا الخاصة.. فهلا أخبرتيني؟»

- من أين تأتي معظم المعلومات التي لها طابع خاص؟ من الخدم بالطبع.. خادمتك الجديدة ابنة عم الخادمة التي تعمل عندنا. ويبدو أن خادمتك معتادة على استراق السمع من وراء الأبواب.

صمتت ايلسا تصارع غضبها وفازت كرامتها، فقالت ولهجة ازدراء في صوتها:

- وأنت.. ايلما.. هل من عادتك تبادل القيل والقال مع خادمتك؟

احمرّ وجه ايلما: «لقد ذكرت أمامي الأمر عرضاً».

كانت إيلما عابسة تنظر إلى ايلسا وهي تحسّ بغيرة قاتلة من

الجمال الرائع امامها.. أردفت إيلما:

- أنت هادئة جداً. أليس لديك ما تقولينه؟ عادة يقوم هذا اللسان اللاذع بقول الكثير.

رفعت ايلسا نظرها. وقالت بهدوء: «وكأنك تستمتعين بنفسك».

- يا لك من متكبرة! مع أنك تعيشين على الاحسان! حسناً.. أنا لست الوحيدة السعيدة بتمريغ أنفك في التراب! فالجميع يقول إنك متكبرة مغرورة.

- الجميع؟

- الأمر أصبح معروفاً في كل المنطقة...

صمتت فجأة، مخفضة عينيها بعد أن أدركت مدى مبالغتها هنا.. لكن ما من شيء سيوقفها عن التبجح الخبيث، وسرعان ما كملت:

- كل الناس عرفوا أنكما طردتما على يد المالك الجديد.. وسيعيش هناك بنفسه.. زوجته ستحل مكانك! وأراهن أن هذا سيغيظك..

- زوجته؟.. وهل هو متزوج؟

- أتوقع هذا.. يقال إنه وسيم إلى أقصى درجة.. سأحاول التعرف إليه في أقرب فرصة.

رنت ضحكة لئيمة في أذني ايلسا:

- ألن يكون رائعاً لو كان غير متزوج واتفقت وإياه؟ هل تصورينني في المنزل الذي عشت فيه طوال حياتك؟ ستموتين من الحسد! وعندها ستتمنين لو أنك لم تسلبيني خطيبي.

عند هذا الحد، وقفت ايلسا وغادرت المقهى. اطلقت العنان لسيارتها بغضب فتطاير الحصى تحت الإطارات.

www.liilas.com/vb3

لم يكن غضبها عندما وصلت إلى المنزل قد خفّ ابداً. أوقفت سيارتها في الكاراج ثم صعدت إلى غرفتها حيث وقفت قرب النافذة تحدق في الحدائق، والمروج الخضراء التي تصل إلى النهر.

مضى شهر.. لا.. بل أقل من شهر.. وهي لم تحرّك ساكناً للبحث عن مكان تقيمان فيه كما لم تباشر في التفتيش في عواميد الإعلانات المناسبة في الصحف عن وظيفة.. ولكن، ماذا يمكنها أن تعمل؟ صحيح أن ايلما بالغت كثيراً حين قالت إنها لا تعرف استخدام منفضة غبار.. لكن، مما لا شك فيه أنها ستجد صعوبة في إيجاد وظيفة ملائمة. والانكى أنها لن تحتمل ابداً تلقي الأوامر من أحد.. قالت تقنع نفسها:

ـ فتيات أخريات، وجدن انفسهن في ظروف مالية حرجة، واستطعن حل المشكلة..

صمتت بسرعة بعد انفتاح الباب.. قالت آنوستي شاهقة:

ـ آنسة مايون.. جدتك! إنها متعبة!

ـ متعبة! أين هي؟

غادر اللون وجه ايلسا. ثم أسرعت تنزل السلم العريض، والخادمة ترد: «إنها في غرفة الجلوس».

ترددت ايلسا جزءاً من الثانية قبل ان تدخل..

ـ جدتي!

ثم سارعت إلى العجوز المستلقية على الاريكة: «حبيبتي. أتتألمين؟».

شهقت العجوز، ووضعت يدها تحت قلبها.. وارتجفت شفتاها، ولكنها لم تر أثراً للازرقاق المعتاد تحتهما.

ـ لقد تجرعت دوائي.. غير أنني اصبت بدوار..

التقطت ورقة وأعطتها لايلسا.

ـ قد أكون امرأة عجوزاً غبية، عزيزتي.. إلا أن هذا ما سبب لي الدوار.

عندما نظرت إلى الورقة فاتتها ملاحظة النظرة الخفية التي رمتها بها جدتها وأكملت العجوز بصوت ضعيف متقطع:

ـ ظننتني سأموت..

ـ لا..! جدتي..

ما الفائدة؟ حاولت ايلسا رؤية ما في الورقة، لكن الدموع حالت دون ذلك.. ما فائدة توبيخ جدتها؟ انها في هذه الأيام مهووسة بفكرة الموت. هذا واضح.. وإلا فلماذا تثابر على ذكر الموت خاصة وهي تعرف مدى الكرب الذي تسببه لحفيدتها؟ نظرت ايلسا إلى جدتها بحيرة:

ـ هذه لائحة بالمنازل والشقق المفروشة المتوفرة للإيجار! فلماذا تسبب لك دواراً؟ من أين هي؟

ـ من المحامي الذي أرسلها ببريد بعد الظهر منذ ربع ساعة.. لم اقرأها فوراً، ولكن حين قرأتها صدمتني الحقيقة المرة. وكان أن اصبت بنوبة قلبية. لا أستطيع تحمل ترك هذا المنزل.. ولا أطيق حتى التفكير في الأمر!

رفعت يدها إلى قلبها: «عليّ التحلي بالشجاعة، إنما كيف لي أن أترك منزلي في مثل هذا الوقت من عمري؟»

سحقت ايلسا الورقة بيدها قبل أن ترميها إلى المدفأة ثم قالت بصوت أجوف:

ـ لن تتركيه. لقد قررت الزواج بالسيد هيلفيلد!

* * *

www.liilas.com/vb3

٦ ـ لن يكون سيدها

لم تشاهد ايلسا زوجها كثيراً في الأيام الخمسة عشرة الأولى. فبعد ساعات على الزواج، سافر إلى اليونان بسبب بعض الأعمال التي توجب عليه ملاحقتها:

ـ أرجو ألا يزعجك سفري، بعد وقت قصير على زواجنا؟

هزت رأسها بسرعة ولهفة.. وهذا ما جعل حاجباه، يرتفعان قليلاً، وهو يقول بلسعة من المرح الجاف في صوته: «ولكنني سأعود طبعاً».

تورّد وجهها قليلاً.. لكن كبرياءها، كانت قد استعادت قوتها ثانية الآن بعد زواجها واطمئنانها على مركزها في «آردال هال»..

ـ اذن، أتوقع حضورك بعد أسبوعين؟ أهذا ما قلته؟

هز رأسه إيجاباً: «آمل إنهاء ما عليّ ملاحقته في هذا الوقت».

لكنه لم يتلقَ تعليقاً من زوجته الحديثة العهد بالزواج التي فكرت في أنها لن تهتم أبداً حتى وإن استغرق عمله ضعف هذا الوقت أو حتى عشرة أضعافه!

غير أنه عاد في اليوم الذي حدده. ولأول مرة تناول ديكون وايلسا العشاء مع السيدة كيلفير التي توقف قلبها عن الاضطراب منذ وافقت حفيدتها على الزواج بصاحب القصر... ويبدو أن العجوز سُرّت أشدّ السرور بوجود رجل في المنزل فقد قالت عبر الطاولة:

ـ لا شك في هذا.. رجل في المنزل يشكل فرقاً كبيراً.. ألا توافقينني الرأي عزيزتي ايلسا؟

ـ ربما وجود رجل، يعطي إحساساً بالأمان في هذه الأوقات التي يكثر فيها اللصوص.

لم يكن هنا مجال للخطأ في السخرية التي مزجتها بكلماتها ومع ذلك، كانت تعترف في سرها أن ما قالته جدتها صحيح.

زوجها، الذي اصر على أن تناديه ديك، وهو الاسم الذي تستخدمه أمه وأخته، ضحك قليلاً وتمتم:

ـ إذن.. لي منفعة! ارجو ألا أخذلك إذا تعرضت لمكروه.

قاطعته السيدة كيلفير: «أعتقد أنك ستكون على أهبة الاستعداد وقت الحاجة».

ابتسم ديك لزوجته، متجاهلاً عدم افتتانها بهذا التودد الذي تبديه له جدتها.

ولكن كان على ايلسا الاعتراف بأن الوجبة كانت ممتعة.. وبعدما آوت جدتها إلى غرفتها وجدت من المسلّي أن يكون برفقتها رجل.

كان قد مضى شهر وهما على هذه الحال، عندما أعلنت فجأة عن رغبتها في الخروج. وحينئذ وقع بينها وبين ديك الجدال الأول. بعد ذهاب الجدة إلى غرفتها.. غيّرت ايلسا ملابسها وارتدت فستان السهرة الأسود الطويل، ثم دخلت إلى غرفة الجلوس، لتخبر ديك الذي لم يكن هناك وانتظرت عودته.

احتجت بتكبر حين قال لها بهدوء إن عليها عدم الخروج بمفردها خاصة بعدما أصبحت زوجته.

ـ لكن زواجنا لا يعني شيئاً فما هو إلا ترتيب عملي لا علاقة له بحياتنا الاجتماعية.. فيمكنك الذهاب إلى حيث شئت ويمكنني

www.liilas.com/vb3

الذهاب..

- شكراً لك ايلسا.. ولكنني لن أذهب إلى حيث شئت ولن تذهبي إلى حيث شئت.

كانت كلماته حازمة حادة غير أن السلطة لم تكن خافية. رفعت رأسها بعجرفة:

- سأخرج.. فأنا معتادة على الذهاب إلى هذه الحفلة الراقصة التي تقام كل شهرين في «بالاس اوتيل» في «بوكستون».

- لا يهمني ابداً المكان الذي تقام فيه بل يهمني فقط أن تتصرف زوجتي بحشمة.

تضافرت نبرة صوته وترفعه الارستقراطي وتصرفاته بتلك الطريقة المهيبة وعيناه السوداوان البارقتان على إشعال حذوة غضبها.. قالت له بدون مواربة إن عليه أن يدرك منذ البداية أنها ما تزال سيدة نفسها.. وانهت كلامها:

- أنا لم اوافق على الزواج بك بغية أن احمل نفسي عبء «سيد».

رفعت طرف فستانها بيد، وأمسكت الوشاح بالأخرى: «دعني أمر. رجاءً».

كان رأسها مرتفعاً وثغرها مضموماً بشدة وعجرفة وكررت: «قلت لك أريد المرور. رجاءً».

رد بصوت ناعم، يتذبذب بالغضب: «سمعتك! لست أصمَّ».

أظهر الغضب خطوطه البيضاء على شدقيه وأبرقت عيناه السوداوان: «كما أعترض على قولك، فليس منا من حمَّل نفسه عبء ما ليس لنا فائدة فيه».

وتواجها. كان الهواء في الغرفة يرتجف بغضبهما. رأس ايلسا مرتفع بعجرفة وعيناها الخضراوان مشتعلتان، وديك واقف ينظر إليها

من فوق وعلى ملامحه القوة التي أثرت فيها منذ البداية.

كررت: «إنه اتفاق تجاري بحت. وعليه يصبح كل واحد منا حراً. لماذا أعيد تكييف نفسي لمجرد إجراء هذا العقد؟»

- ثمة مقدار معين من التكيف محتوم حين تتغير طريقة حياة شخص ما.

إنه يحاول حلّ هذه المشكلة بالمنطق كما يحاول في الوقت ذاته ترسيخ سلطته وإجبارها على الخضوع، وهذا ما اشعل غضب كبريائها وعزمت النية على محاربته إذا لزم الأمر. بدت مهيبة وهي واقفة بثوبها الاسود الطويل، العالي الياقة وبشعرها المرفوع إلى فوق بطريقة أبرزت قسمات وجهها الصارمة.. كان جمالها بارزاً ولكنه جمال بارد متجهم، قد يسبب النفور في الوقت الذي يثير أعمق الاعجاب. ستكون بدون شك محط الأنظار في الحفلة الراقصة وسيتوق الرجال إلى مراقصتها رغم سمعتها المرعبة.

قالت بحدة وهي تنظر إلى الساعة:

- لا أرى ما يلزم أي تغيير. واعلم أنني سأكون ممتنة لك إذا تنحيت لأمرّ.

صرّ على أسنانه وعوضاً عن التنحي جانباً انتزع منها الوشاح، ورماه على الأريكة:

- لن تخرجي إلى مكان لا هذا المساء ولا فيما بعد.. ألم تفكري في ما سيكون عليه موقفي في المنطقة في ما لو استمرت زوجتي بممارسة حياتها كالسابق؟ أنا السيد الجديد هنا.. ومن الطبيعي أن اتوقع الاحترام المطلوب لرجل في مثل مركزي. ولن تجعلني زوجتي عرضة للسخرية.

اشتعلت عيناها لأنه رمى وشاحها إلى منتصف الغرفة. ونظرت إليه بما لا يمكن وصفه سوى بالحقد، قبل أن تستدير، وتستعيد

www.liilas.com/vb3

الوشاح. هذا التحدي السافر أطلق العنان لغضبه مرة اخرى فحاول انتزاعه منها. ولكنها سارعت إلى المرور وفتحت الباب غير أنه قبض على معصمها بقبضة فولاذية، لم تستطع معها سوى أن تصيح:

ـ دعني وشأني! أبعد يدك عن معصمي!

وعوضاً عن ذلك زاد ضغطه عليها ولمّا لاحظ تكشيرة ألمها قال بهدوء يبعث الغيظ:

ـ متألمة هه؟ هذا نموذج ليس إلا. لقد هددتك مرة بصفعة على أذنك ولكن إن استمريت على هذا المنوال فستجدين نفسك معاقبة بطريقة ستؤلم كبرياءك أكثر مما ستؤلم جسدك!

ـ أنت.. أيها..

واختنقت الكلمات واهتزّ جسدها كله غضباً..

ـ لن تجرؤ على لمسي!.. أنت لست في اليونان ولست تتعامل مع إحدى المسكينات اللواتي يعانين من تسليط القدر عليهن ما يدعى بالجنس المتفوق!

أسرت نظرة ديك الشرسة نظرتها لحظة غير أنه لم يعلق على ما قالته. كان في تصرفه تفوق وغطرسة وسيادة كاملة.

ـ الأفضل أن تعودي إلى غرفتك لتنزعي هذا الفستان.

تصاعدت الدموع إلى مآقيها... دموع عزتها بكل تأكيد إلى غضبها لا إلى هزيمتها، فهي لم تهزم قط..! أتستسلم لأوامر هذا الرجل؟ أبداً! وسألت بعنجهية: «وبعد ذلك. هل لي أن أخرج؟».

ـ سأكون بانتظارك هنا حين تنزلين. اشتريت شريطي تسجيل اليوم، أظنك ستستمتعين بسماعهما.

يا لثقته بنفسه!.. يا لتباهيه بأهمية نفسه! تجاوزته إلا أنها عرفت أنه يراقب ظهرها وهي تصعد إلى غرفتها التي ما إن أصبحت فيها حتى اطلقت انفاسها، ببطء وثقل، تخفف من وطأة الغضب

الذي يضغط على اعصابها. جلست على مقعد طاولة الزينة تحاول استعادة جأشها.. ما هذه الحياة التي زجّت نفسها فيها مكرهة؟ آه إن ذلك الرجل لا يحتمل ومن الأفضل ان يتقبل واقع أنها سيدة نفسها لا من رجل مهما كانت قوته قادر على أن يملي عليها ما تفعل!

أخيراً، وقفت، وفتحت الباب بهدوء فإذا في الخارج كل شيء صامت.. لفت وشاحها على كتفيها وهبطت الدرج بهدوء بعدما ألقت نظرة إلى باب غرفة الجلوس ولم تجد فيها أحداً. وتسللت إلى الخارج.

وما هي إلا ثوان حتى كانت انوار المنزل تتضاءل خلف صف الاشجار الطويل المشرف على الطريق الداخلية، وانطلقت ايلسا بالسيارة بافتخار المنتصر.

كان وجه ايلما مثال الذهول وهي تراقب دخول ايلسا إلى قاعة الرقص، يرافقها وافد جديد إلى المنطقة، وهو شاب جميل الطلعة، أشقر الشعر، أزرق العينين، وكان الشاب قد تعرف إلى ايلسا وهما في المقهى، وهو الآن يسير بفخر إلى جانبها شاعراً بأن جميع الرجال الموجودين هنا يحسدونه عليها. أما ايلسا، فقد كانت تحس بالازدراء لهذا النصر السهل. تتساءل باحتقار، لماذا يقع الرجال ضحية مظهر جذاب مخادع. وابتسمت لنفسها فجأة لدى التقاء عينيها بعينيّ روبيلا مايقل التي تعيش في «فليدستون هاوس» الذي لا يبعد سوى ميل واحد عن «آردال هال».

عندما توقفت الموسيقى رفضت ايلسا بأدب عرض شريكها لشرب المرطبات، واتجهت إلى روبيلا التي قالت لايلسا قبل أن تفتح فاها:

ـ تعالي إلى قاعة الانتظار لنتكلم.. أموت شوقاً لأعرف أخبارك. أنا لا اجرؤ على المجيء إلى منزلك خاصة بعدما أصبح له

www.liilas.com/vb3

«سيد»!

رفعت ايلسا حاجبيها بارستقراطية:

ـ سيد! حقاً.. روبيلا!

ضحكت الفتاة، ودست ذراعها بذراع ايلسا تحثها نحو المدخل المرتفع الذي يقع خلفه قاعة للاستقبال وعندما وجدتا زاوية هادئة، جلستا.

ـ أخبريني كل شيء! صعقني الخبر وخلت للوهلة الأولى أنه إشاعة، ولكن ماذا تفعلين هنا بدونه؟ سمعت أنه مسافر ولكنه عاد. أنت تعرفين كيف تدور الأخبار في بيئة مغلقة كهذه.

ـ أخبريني روبيلا ماذا تقول الألسنة المتحركة.

ـ أنا.. حسناً ايلسا.. ثمة شائعة كريهة تقول إن.. إن «آردال هال» ليس ملك جدتك.

وصمتت، في عينيها الرماديتين الكبيرتين اعتذار وتساؤل. ترددت ايلسا، غير انها وروبيلا، رغم عدم وجود صداقة قوية بينهما منسجمتان. اخبرتها ايلسا بكل شيء.

صاحت روبيلا: «يا الله! أشعر بأنني أقرأ رواية من وحي الخيال».

ـ لا، ليست رواية، فالرجل السخيف يؤمن حقاً أنه قادر على إملاء ما يريد عليّ.. ولقد عارض مجيئي إلى هنا الليلة، بل تجرأ وقال لي إنني لن أخرج! أتتصورين هذا؟

ضحكت روبيلا. وكررت وهي لا تزال تضحك:

ـ الرجل السخيف! يا له من وصف تصف به عروس زوجها بعد ستة أسابيع على الزواج.

سألت ايلسا: «وماذا تلوك الألسنة عدا ذلك؟».

ـ كانت ايلما تقول الكثير، فهي مليئة بالكراهية!

فيما كانت تقول تلك الكلمات تغيرت أساريرها. فنظرت ايلسا إليها بحيرة، لكنها تراجعت عن سؤالها عن السبب، تسأل بدلاً عن هذا عن طبيعة شائعات ايلما.

ـ هي من بدأت بهذا كله.. في الواقع.. يبدو انها حصلت على معلومات من الداخل، وقد أشاعت أنك وجدتك تعيشان على.. على..

اكملت ايلسا بصوت منخفض: «على الإحسان».

ـ نعم، شيء من هذا القبيل.

برقت عينا ايلسا، ومع أن كبرياءها تألمت، إلا انها تمكنت من المحافظة على وقارها.

ـ وماذا قالت غير هذا؟

ـ قالت إن زوجك هو المالك الحقيقي وإنه يوناني من جهة الأم وقالت كذلك إنك التقيت أخيرا ندك لأنه نصف يوناني.

ضحكت ايلسا، لكن ويا للغرابة، لم تشاركها روبيلا مرحها، وقالت بلهفة:

ـ من المعروف عن اليونانيين أنهم معتادون على إخضاع نساتهم لسلطتهم.

ـ سيكون يونانياً متفوقاً من يستطيع اخضاعي.

ـ قلت، إنه منعك من المجيء إلى هنا الليلة؟ فهل تحديته وخرجت؟

ـ هذا ما فعلته.

أردفت روبيلا بخوف:

ـ لكن.. حين تعودين.. ألن يكون غاضباً؟

ردت بثقة كاملة: «سيكون حين عودتي قد أوى إلى فراشه».

قالت روبيلا:

www.liilas.com/vb3

- أنت واثقة من نفسك، وأحسدك على هذه الثقة. أما أنا فغارة جبانة.

تبع قولها صمت قصير. ثم تبعت نظرة ايلسا نظرة صديقتها:

- ما بالك؟ أتعرفين ذلك الشاب؟

هزت روبيلا رأسها بحزن، إنه الرجل الذي قاد ايلسا بكل فخر إلى قاعة الرقص منذ قليل.. وقالت:

- إنه روبن ستانفورد.. تعرفت إليه منذ اسابيع في حفلة.. حين كنت غائبة في «ايسوكس» بدا أنه معجب بي كثيراً، وقد صحبني إلى حفلة عشاء راقص في «مانشستر» وذهبنا إلى السينما كثيراً. ولكن منذ اسبوعين، التقى ايلما.. وكان هذا كل شيء.

غص صوتها وهي تهز كتفيها، فسألت ايلسا بحيرة: «لم أره مهتماً بها الليلة».

- لأنه شاهدك.

استقر على وجه ايلسا تعبير الاحتقار:

- إذا كان من هذا النوع روبيلا، فمن الأفضل أن تنسيه.

- ربما أنت على حق، ولكنني وقعت في حبه رأساً على عقب. آه، يا عزيزتي ماذا أفعل؟

- انسيه.

قالت روبيلا بحزن: «ربما أنت على حق» ثم توقفت عن الكلام قليلاً وغيّرت الموضوع:

- يقولون إنك تزوجت ديكون هيليفلد للبقاء في القصر فقط. كما يقولون إن جدتك هي من دبر الامر كله.

أصدرت ايلسا صوت غضب بلسانها:

- أف للناس! ليتهم ينصرفون إلى شؤونهم. إن رأس الأفعى هي إيلما، فهي تحقد علي منذ مسألة خطيبها.

- أعرف.. وهي حقود فعلاً إنما ليست الغلطة غلطتك، لقد وقع الرجل في حبك.

- لم يقع في حبي بل أغرم بي.. يا للمخلوق الغبي!

بعد صمت قالت روبيلا:

- أجل، يبدو لي أنه كان مجرد غرام، فقد تزوج سواك.. إنك جذابة لذا ليس غريباً أن يلاحقك الجميع..

- روبيلا بالله عليك لا تتفوهي بمثل هذه السخافات.

- أعتقد أنك تكرهين الرجال.

- بل أحتقرهم، لأنهم لا يسيطرون على غرائزهم الحيوانية.. فما المرأة بنظرهم إلا رفيقة فراش.

قالت روبيلا ضاحكة وقد تذكرت فرانك وايت:

- أراهن أنك شعرت بسعادة كبيرة عندما دفعت فرانك وايت إلى البحر.

- كانت سعادة كبيرة فعلاً..!

صمتت ايلسا لتطلق ضحكة صادقة.. وفي هذه اللحظة قررت ايلما الانضمام إليهما قائلة:

- أيمكنني مشاركتكما النكتة؟

ثم جلست في مقعد فارغ مقابل مقعد ايلسا.. وتلاقت عيونهما فعادت بهما الذكرى إلى المرة الأخيرة التي تحدثتا فيها. وسرعان ما انخفضت عينا ايلما أمام عيني إيلسا التي ردت عليها ببرود: «انتهت النكتة».

برقت عينا الفتاة، وقالت بصوت منخفض:

- متعجرفة كحالك دائماً ايلسا.. هل أنت متعجرفة مع زوجك؟ عجباً.. لماذا لا أراه برفقتك الليلة؟ ألا يحب الرقص؟ يبدو أنه مختلف عن اليونانيين العاديين فما أعرفه عن ذاك الشعب أنهم يبقون

www.liilas.com/vb3

نساءهم تحت جناحهم.

وتركت صوتها يتلاشى ببطء.

تبادلت ايلسا وروبيلا النظرات، ولاحظت الاخيرة لمعان الغضب في عيني صديقتها، فسارعت تقاطع الحديث بقولها:

- يبدو انك سمعت أشياء غريبة عن اليونان ايلما.. زوج ايلسا انكليزي من جهة الأب.

- مع ذلك أتوقع أن يكون الدم اليوناني فيه هو الغالب.

كانت ايلسا على وشك الرد بحدة، حين رفعت نظرها لترى تقدم روبن ستانفورد نحوهن. وما هي إلا لحظات حتى كان يجلس قرب ايلما. وارتبكت روبيلا، وبدا ذلك واضحاً في وقوفها السريع وقولها: «سأذهب الآن. أراك لاحقاً ايلسا».

وقبل أن تحتج ايلسا، انطلقت مبتعدة.

مع ان روبن اختار الجلوس إلى جانب ايلما إلا أن عينيه تركزتا على ايلسا. فابتسمت له، تقصد إثارة ايلما.. وأخذت تحدثه، فتعلق بشغف بكل كلمة قالتها، وجلست ايلما بلا حراك.

بدا أن روبن قد نسي وجود ايلما وقال مبتسماً يدعو ايلسا: «هل نرقص؟».

هبت واقفة وسمحت له بإمساك ذراعها استعداداً للعودة إلى قاعة الرقص، ولكن، في تلك اللحظة بالذات، اتسعت عينا ايلسا، لأنها رأت زوجها يدخل في المدخل الذي يفصل قاعة الجلوس عن المقهى.

اختبرت الغضب اولاً ثم خفق قلبها وتمتمت تتخلص من ذراع روبن:

- ديك!.. جدتي.. أهي.. هل أصابتها نوبة؟

قال لها غاضباً:

- اذهبي واحضري وشاحك! كيف تجرؤين على مخالفة رغباتي؟ منعتك من المجيء إلى هنا!

نظر بغضب إلى الآخرين، ثم استدار إلى زوجته:

- قلت لك احضري وشاحك فوراً!

لاحظت ايلسا وجوه المتفرجين الواقفين حولها ولكن الضحك المكبوت من ورائها هو ما لفت انتباهها. نظرت إلى وجه ايلما فرأت الحقد والانتصار الممزوج بالتسلية في عينيها السوداوين.

قالت ايلما بهمس ساخر:

- اذن، أنا على حق.. عليك الطاعة وإلا قرر أن يعاقبك بالضرب..

قطع صوت ديك الأجش كلمات ايلما الخبيثة:

- ايلسا.. افعلي ما أقوله لك فوراً.. ستعودين معي إلى المنزل!

رغم الغضب الذي أشعل كيانها أدركت أن إبداء أي تحد قد يؤدي إلى المزيد من الإذلال لها. بعدما أطلقت عليه نظرة حاقدة، توجهت إلى غرفة الملابس لتحضر وشاحها.

* * *

www.liilas.com/vb3

٧ ـ ستكرهينني أكثر!

أمسك ذراعها وهما يتوجهان إلى سيارته فحررتها منه ولكنه عاد فاستعاد مرفقها. وكانت قبضة ديك في هذه المرة قوية مؤلمة.. تقدمت ايلسا معه نحو الموقف، بما بدا لزوجها انصياعاً مدهشاً.

قال باقتضاب: «فلتبق سيارتك هنا، سأهتم بأمر نقلها صباحاً».

لم يتبادلا الحديث عندما ركبا السيارة التي شغّل محركها فوراً، أخيراً تكلمت..

ـ كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا وإذلالي! كيف تجرؤ على إهانة كرامتي؟

استدار رأسه بحدة: «أجرؤ لأنني زوجك».

لم يكن في كلماته أثر للغضب الذي كان يغلي في داخله.

ـ أنت زوجي اسمياً فقط! قلت لكِ قبل أن أخرج إنني لم ادخل اتفاقية الزواج وفي نيتي أن أحمّل نفسي عبء سيد عليّ.. من الأفضل مناقشة الأمر حين نصل المنزل.. يجب أن نتوصل إلى تفاهم ما!

كان رده المنذر بالشر مختصراً:

ـ وهذا بالضبط ما سأفعله.

ـ أنا لا أخافك لذا أبعد نبرة التهديد عن صوتك!

ـ أنت لا تخافين مني حتى الآن ولكنك ستخافين فيما لو

استمريت على هذا المنوال.

ـ أتهددني بعقاب جسدي! أنسيت أن جدتي تعيش معنا؟

رد عليها بهدوء: «أظن أن المنزل كبير بحيث يتسع لترويضك دون أن تصل صرخاتك إليها.. لا تخطئي أبداً ايلسا.. اعرف كيف تسوس زوجتي».

ـ تسوس! لا تجرؤن ابداً على استخدام مثل هذه الكلمة معي!

ولم يردَّ ديك، فساد الصمت بضعة أميال. حاولت ايلسا التخفيف من حدة توترها العميق. أدهشها ان تتأثر إلى هذا الحد. فكيف تتأثر وهي من كانت دائماً متعجرفة باردة، مع الرجال.. لقد كان لسانها وبرودتها خير وسيلة لردع أي رجل أما الآن..

نظرت شذراً إلى الوجه المتجهم.. وكأنه منحوت من الصوان.. على يد نحّات انكبّ على كشف كل ما هو شرير في نفس الرجل، شرير وبغيض. أجل إنه وجه شرير، فجأة سرت رعدة رهيبة إلى ظهرها. أكانت تحلم يوماً أن رجلاً ما سيسبب هذا كله لها؟

شعر بنظرتها إليه، فالتفت إليها بسرعة.. لم تكن قسمات وجهه في عتمة السيارة مقروءة كما أن صوته خلا من الانفعال عندما قال:

ـ إن تحديك لي لغباء شديد، فأنت دون شك عرفت أنني لست الرجل الذي بإمكانك تجاوزه بهذه الطريقة؟

ردت بعجرفة: «لم أتوقع قط التعرض لمثل هذا الموقف. صدقتك حين قلت إن زواجنا ليس سوى اتفاق مصلحة».

ـ إنه هكذا، وسيبقى، اتفاق مصلحة.. ولكنني أرفض أن أُذَل. إن مركزي يتطلب الاحترام، وسأتأكد من حصولي على هذا الاحترام من كل من له صلة بي.

ـ وماذا عن إذلالي؟ تلك الفتاة التي كانت معي تكرهني.. ولا بد أنها الآن تكرر للجميع ما سمعته.

www.liilas.com/vb3

كانت تعاني من العذاب نتيجة تخيلاتها. سيسمع الناس قصتها.. وسيضحك الجميع.

قال زوجها يرد عليها بهدوء:

- أنت السبب في ما أصابك. لقد جُرحت كرامتك، وأنت تستحقين ذلك. واعلمي أنها ستجرح اكثر إذا واظبت على تحدي سلطتي.

جعلتها كلماته الأخيرة غير قادرة على الرد لأن غضبها بلغ أشده... فركزت نظرها على الطريق امامها. تفكر في ما جرى في الفندق.. حاولت ايلسا تصور ما ستشعر به في ما لو دخلت إلى غرفة فيها أناس قد سمعوا باذلالها..

عرفت أن ملاحظات عدة ستتناقل بين الناس: «هذا سيقلل من كبريائها قليلاً!» و «لقد حان الوقت لتلتقي بندها» وتملكت ايلسا كراهية سوداء تجاه الرجل الجالس إلى جانبها. الرجل الجالس ببرود وراء المقود رابط الجأش ولكن قوته كانت بادية حتى.. حتى في ذروة غضبه المتأجج.. وها هي هذه القوة تثبت مصداقيتها، وتجعلها تحس ثانية أنها أقل منه شأناً وقدرة.

اتسعت عيناها.. ورمقته جانبياً.. هل التقت حقاً ندّها؟

صعقتها الفكرة ولكنها سرعان ما أبعدتها عن تفكيرها بقوة.. ما من رجل قد يكون نداً لها..! ولن يكون بكل تأكيد أجنبي غريب سيداً عليها!

- استرخي حباً بالله.

قطعت النصيحة الهادئة عليها افكارها، فأدارت رأسها، تبدي الدهشة.. فأكمل:

- التوتر واضح عليك يا فتاة.. أنت ثائرة وأعصابك متوترة. إنك تؤذين صحتك بترك مشاعرك تستولي عليك. أمامنا مسافة طويلة

حتى نصل، ومن الأفضل ان تستمتعي بالمناظر.

رفع يده عن المقود ليوجهها إلى الزجاج الامامي.

- انها ليلة جميلة، انظري إلى القمر، والنجوم.. لا ترين عادة سماء صافية كهذه في انكلترا.. أما في اليونان..

قاطعته بجفاء: «أنا لا أهتم البتة لليونان».

أعاد يده إلى المقود: «ولكنك ستحبينها حين نذهب»..

- لن أذهب.

- سأبحث مع جدتك فكرة السفر إلى اليونان. أريد أن تلتقي بعمي وشقيقتي.

- إن هذا مثير للاهتمام.. أخشى أن تصاب بخيبة أمل لأنني لا أرغب في لقائهما.

- أفهم مشاعرك في الوقت الحاضر، غير أنك ستتجاوزين ما حدث بسرعة.. وعندئذ ستتباحث أمر السفر الذي أصر عليه.

- تصر؟

قال بلهجته العذبة:

- ايلسا.. ستوفرين على نفسك الكثير من الحزن لو اعترفت منذ البداية بأن كلمتي هي القانون. إن قلت إننا سنسافر فهذا يعني أننا سنسافر.

- هل ادعاء السلطة يتوافق مع وعدك بأن زواجنا سيكون مجرد اتفاق مصلحة؟

- في كل اتفاق عمل، ثمة شريك أعلى.

قالت ساخرة: «عدنا إلى تحوير الكلام».

لم يرد على هذا، وبقيا صامتين فترة.

كانت السيارة تسير بهما على طول ضفة النهر حيث ترتفع قطعة صغيرة من الأرض بشكل عمودي، ولم يكن هناك نور في أي مكان،

www.liilas.com/vb3

فالطريق نفسه مهجور إلا من سيارتهما التي تهدر بصوت منخفض وتنعطف بسهولة تحت يدي سائقها القدير. فجأة، أحست انها آمنة مطمئنة. وهذا ما شعرت به في المركب، وتذكرت كم كان الإحساس بالأمان لذيذاً.. وأخذت تشعر بالإحساس ذاته الآن.

تكلم ديك، يكسر الصمت: «هل تعملين بنصيحتي؟ وهل تستمتعين بما هو حولك؟»

وكانت ويا للدهشة تستمتع فعلاً.. لكنها أجابت:

ـ كيف لي ذلك، وأنا أعرف أن المشاكل قادمة.

ـ اوه.. انت اذن تتقبلين واقع انك في ورطة؟

ـ قلت إن المشاكل قادمة! وأعني بيتنا!

ـ أتعنين أنك ستتشاجرين معي؟

ـ أريد الانتهاء من هذا الامر الليلة! يجب أن أحدّد موقعك وموقعي..

ـ هذا يعني، أن تذهبي أنت في طريق، وأنا في آخر؟

ـ بالضبط!

ـ فلنفترض أنني مضيت في سبيلي إلى حد اصطحاب امرأة إلى المنزل؟

كان يطرح السؤال ببطء وعيناه على الطريق، ولكن، كان لدى ايلسا انطباع غير عادي، بأنه يعرف أي نوع من الانطباعات سيبدو في عينيها..

صاحت ساخرة: «امرأة؟».

شعرت بالمزيد من التوتر وتراءت لها ايلما وهي تنشر الخبر في كل مكان. قالت، ورنة غريبة في صوتها:

ـ ألم تقل إنك لا تريد أن تفقد ماء الوجه؟

ـ وهل تعتقدين أنني سأفقد ماء وجهي إن صحبت صديقة؟

ـ بكل تأكيد.. نحن هنا في الريف لا في مدينة كبيرة.

ـ قد لا أصطحبها إلى البيت بل ربما وضعتها في شقة صغيرة لطيفة في «باكويل» او «بوكستون».

صمتت ايلسا ووجدت نفسها تبلع ريقها بصعوبة. ولماذا تهتم إن كان له صديقة؟ بما أنها لا تريده لنفسها، فيجب ألا تتبنى تصرفاً متشدداً، وتطلب منه عدم التفكير في سواها.

وجدت نفسها تقول، وقد تلاشى الغضب من صوتها:

ـ قد يخيب أمل جدتي فيك.

ضحك ديك بمرح خالص. وأدار وجهه الاسمر إليها. قال بشكل غامض ملؤه النصر:

ـ عجباً.. ليتك تعرفين كم لقولك هذا من معاني ايلسا؟

قطبت وقالت: «لا أفهم ما تعني».

ـ ستفهمين يوماً.

حين وصلا أخيراً إلى المنزل اكتشفت ايلسا ويا للغرابة، أن كل ما ترغب فيه هو إيجاد الهدوء في غرفتها، ولكن ديك سارع إلى تبني السلطة التي شعرت أنه لن يفشل في فرضها عليها. فتح باب غرفة الجلوس، وقال باقتضاب:

ـ إلى هنا ايلسا.. فلنته هذا الامر ولنسترح.

دخلت إلى الغرفة وهي تتساءل كيف استكان غضبها وولّت رغبتها في مشاجرته. قالت: «أنا تعبة».

وكان ارتفاع حاجبيه إشارة إلى أنه يفترض بانها قبلت الهزيمة، وهذا ما دفع غضبها إلى الواجهة من جديد. جلست باندفاع على الكرسي، لتقول بكل عجرفة:

ـ حسناً..؟ قل ما تريد قوله، ولأقل ما أريد.

هيأت نفسها، متوقعة أن يمد يده إليها لتشدها بخشونة حتى

www.liilas.com

تقف ولكنه ظلّ ينظر إليها بعينين ضيقتين وفي هذه الأثناء كانت إحدى يديه في جيب سرواله، والأخرى تلامس ياقة معطفه..

- ما يجب أن أقوله، يمكن اختصاره بهذه الكلمات: على زوجتي التصرف بأقصى درجات الأدب والحشمة. يجب أن تتصرفي وكأننا زوجان طبيعيان سعيدان.. هذا كل شيء.

صمت ينظر إليها بترفع، ثم أضاف، باشارة مهملة من يده نحو الباب:

- والآن.. اذهبي إلى النوم.. فلا أظن أن ما ستقولينه مطلوب الآن؟

اشتعلت عيناها الخضراوان وتوهج الغضب في نفسها، واشتدت قبضتاها تسحقان القماش الناعم ثم لم تلبث أن قالت بحنق:

- لا تجرؤن ابداً على معاملتي بديكتاتورية! واعلم أن ما سأقوله مطلوب بل هو ضروري!.. اولاً: أنا لا أقوم بما يتناقض مع الأدب والاحتشام.

- وهل دفع شاب محترم إلى البحر تصرف محترم محتشم؟

- كان يستحق ذلك!

- لا شك في أن الرجل يستحق.. ولكن عملك لا يعتبر أبداً عملاً محترماً تقدم عليه سيدة. كما أن تصرفك ذاك جعل الألسنة تلوك اسمك. والدليل الجيد على التربية الجيدة ايلسا، هو ضبط النفس وعدم إظهار الوقاحة.

صمت تاركاً لها فرصة التعليق ولكنها لم تكن قد وجدت الكلمات حين أردف:

- أعرف أنك امرأة مستعدة إذا ما مسَّ أحدهم كبرياءك السخيفة إلى التصرف بطريقة تجعل الناس يتناولونك بألسنتهم. ولكن ذلك غير مهم في عزوبيتك أما الآن وقد بت زوجتي فعليك التصرف

بطريقة متعقلة ملؤها الأدب والحشمة.. فاسم ايلسا مايون كان طبقاً للشائعات أما اسم ايلسا هيلفيلد فلن يذكر إلا بكل احترام.

- ماذا تقول؟ أتقول إنني حتى الآن لم أكسب احترام الناس؟ أريد لك أنني محترمة! أعتقد أن من أخبرك قصة ذاك الشاب الذي سقط عن ظهر المركب قد ذكر لك سبب تصرفي؟ ألا تحترمني على هذا التصرف؟

- أحترمك على ما دفعك إلى هذا التصرف إنما لا تخلطي بين الأمرين.

صمت.. فشاهدت تغيراً عجيباً تقريباً في أساريره، وتغيرت عيناه كذلك إذ أصبحتا رقيقتين شفافتين. عبست ايلسا تحاول قراءة سبب التغيير، ولكن سرعان ما تلاشت تلك الرقة وحلت محلها الواجهة القاسية من جديد.

- أنا أستنكر تصرفك كما استنكر افتقارك إلى السيطرة على ضبط النفس، فلم يكن ما فعلته ضرورة لا بد منها.

وصمت مجدداً ثم أردف:

- أنا مقتنع أنه كان بإمكانك معاملة ذلك الشاب المغرم، بطريقة أكثر لباقة للفضيحة من تلك.

تمسكت بسرعة بملاحظته:

- إذن، تعترف أنني قادرة على التعامل مع من يسيء إلي من الرجال؟

رد ببرود: نعم مع معظم الرجال. إنما لا تخطئي ابداً في حسابات تعاملك مع زوجك ايلسا. فهو ليس بمغرم قد تحتاجين إلى لباقة عند حده. إنه رجل، كان رجلاً دائماً، وسيبقى إلى الأبد يطلب الاحترام ممن يتعامل معه. وهذا يشمل زوجته.

كانت وتيرة صوته منخفضة ولكن فيها إنذاراً واضحاً يحذرها من

www.liilas.com/vb3

مغبة تحديه.

قالت بعد صمت طويل: «لا أرانا وصلنا إلى حل».

كانت تفكر في كلامه عن عدم وقوعه في غرامها. فكرت في كلمة مغرم التي تفوه بها. إنها زوجته ومع ذلك لم يحاول التحرش بها. نعم لا تنكر أن زواجهما قائم على أساس عدم إدخال العاطفة فيه ولكنها ما كانت ستدهش في ما لو حاول التحرش بها ولو قليلاً.. إلا أنه عوضاً من هذا بقي ملتزماً بحرفية الاتفاق. ومن الواضح مهما كانت مشاعره أنه قادر على السيطرة عليها..

استحوذ عليها احساس غريب وقادها هذا الإحساس إلى سؤال: هل بدأت تعجب بهذا الرجل؟ عليها الاعتراف بإعجابها بقوته وبثقته بنفسه على المركب. واضطرت كذلك للاعتراف بإعجابها بمظهره كله بدءاً من قسماته المنحوتة بإتقان انتهاء بشكل جسده الكلاسيكي. والآن هل بدأت تعجب به بسبب سيطرته؟ هي غير معتادة على ذلك من أبناء جنسه الذين تعاملهم بازدراء لئلا يسيئوا إليها. لو كانت بسيطة قبيحة لما تعرضت لملاحقاتهم ولكنها جميلة وبسبب جمالها هذا يقع الرجال في حبها بسرعة غير ناظرين إلى ما وراء واجهتها.

رد عليها: «لم نصل إلى شيء؟ أظنك تقصدين أنك لم تصلي إلى شيء؟».

تلاشى غضبها كله: «علينا توضيح مواقفنا الشخصية، أنا لم أتزوج وفي خلدي الاستسلام لسيد».

تنهد بنفاذ صبر: «أنت عنيدة ايلسا، وسيكون من الأيسر لك لو رضيت بهذا التغيير. للمرة الاخيرة أقول، لن أدعك تتنقلين من مكان إلى آخر كما يحلو لك.. ولن أسمح بأن تثيري الشائعات عن زواجنا أو سعادتنا فلو شوهدت بمفردك طوال الوقت لانطلقت الألسنة في كل حدب وصوب».

اعترفت في نفسها بصدق هذا. لكن كبرياءها لم تسمح لها بتلقي الأوامر. ردت، تستعيد عجرفتها: «سأعيش حياتي كما يحلو لي، وإن شئت مشاجرتي بهذا الصدد فلا أمانع إنما اعلم أنك ستتعب قبل أن أتعب».

وهبّت عن كرسيها برشاقة، واتجهت إلى الباب. كانت يدها على المقبض حين قال بصوت لاذع كالسوط: «تعالي إلى هنا».

التفتت إليه بغضب متطاير: «ماذا قلت؟».

كان جسدها النحيل متشنجاً وكانت عيناها تحدجانه بكل غطرسة من رأسه إلى أخمص قدميه. شاهدت الخطوط البيضاء تبرز على فمه ولاحظت الجليد في عينيه وأحست ان الجو يتذبذب بالغضب.. كانت قوتها عظيمة وكبرياؤها في أوجها.. ولكن قوة هذا الرجل حرقت عظامها ومع ذلك قاومت.. وقف ديك ولكنه لم يقترب منها.

ـ قلت.. تعالي إلى هنا!

اشتد ضغط ايلسا على فمها:

ـ ظننت أن هذا ما قلته! أنت لا تعرفني جيداً ديك.. وإلا لأدركت أنك تضيع وقتك في محاولة السيطرة عليّ..

انقطعت كلماتها، وحاولت الهرب نحو الباب، ولكنه كان قد أمسك بمعصمها قبل أن تبلغ الباب. وجرّها بخشونة إلى وسط الغرفة.. قاومت بلا جدوى لتحرير نفسها، ولكن مقاومتها فتحت الباب على مصراعيه لغضبه فأمسك كتفيها، وهزها بعنف ووحشية.

كانت على وشك أن تفقد وعيها حين تلاشى أخيراً غضبه، وتركها، فترنحت.. غير قادرة على أن تصدق أن هذا يحصل لها فعلاً.

www.liilas.com/vb3

تقوقعت داخلياً بسبب هذه الضربة القاسية لكبريائها: «أكرهك».

لم يكن العنف الذي تلقاه جسدها يذكر أمام جرح كبريائها. أتعامل هكذا.. وعلى يد رجل!

ـ ستكرهينني كثيراً فيما بعد.. إن لم ترضخي لرغبتي باللين فسترضخين لها بالقوة، ضعي كلماتي هذه في رأسك المغرور.

كانت قد تمكنت من الوصول إلى الاريكة، ووقفت تنظر إلى ظهرها خافقة القلب متوترة الأعصاب، كانت أصابعه قد تركت علامات حمراء على بشرتها الناعمة الطرية، أما أطرافها فكانت زرقاء، وهذه بداية لكدمات كريهة ستظهر فيما بعد.. وسيكون في مؤخرة كتفيها المزيد من الكدمات. أغمضت عينيها، تغلي غضباً. لم تفكر قط أنها تعاني إذلالاً كهذا. في البدء كانت الفضيحة في الفندق، والآن كان عنفه.

نظرت إليه فإذا وجهه ما يزال شيطانياً مخيفاً عديم الرحمة وكأنه ينظر إليها بإهمال أو كأنه سئم منها.. أحست أن مرجل غضبه ما زال مشتعلاً ولهذا، كبحت نهورها لتتكلم خشية أن تقول ما يزيد من سعير الاتون حتى يبلغ حد الانفجار.

قال، وعيناه تنتقلان من كتف إلى آخر: «اذهبي إلى فراشك».

نظرت إليه باحثة عن الندم إلا أن نظراته ظلت غير مهتمة فشعرت بدون سبب برغبة في البكاء. قالت وهي ترفرف عينيها:

ـ لا أدري ما تحاول فعله بي.. لكنني واثقة من وجود شيء...

اسرت عيناه السوداوان عينيها قبل أن يرد بلهجة قاسية كالكلمات

التي قالها:

ـ أنا أنوي سحق هذه الكبرياء وهذه العجرفة.. لن أسحقها فقط.. بل سأمرغها بالتراب!

* * *

www.liilas.com/vb3

٨ ـ تخافه أو تحبه؟

فكرت ايلسا بهذا التهديد طويلاً وأقسمت ألا يتحقق ما قاله. أيمرغ كبرياءها بالتراب؟ يا له من أمل واهٍ!

لكنها لمست بشكل آلي أعلى ذراعيها، فما زال الألم موجوداً وانتفضت ألماً عندما ضغطت. لقد تعرضت كبرياؤها بدون شك إلى ضربة مدمرة.

ـ ايلسا، عزيزتي، هل آذيت ذراعيك؟ إنها المرة الثانية التي أراك فيها تمسكين بها.

قطع صوت السيدة كيلفير القلق على ايلسا افكارها، فرفعت رأسها مبتسمة.

ـ لا.. بالطبع لا. أعتقد أنها عادة سخيفة اكتسبتها.

ـ لم أعهدك تقومين بعادات معينة عزيزتي.

ثم اتجهت عيناها إلى الباب الذي انفتح، فأشرق وجهها بوضوح، أما ايلسا فسحبت نفساً عميقاً. كيف لزوجها البغيض ان يكسب محبة جدتها بهذه السرعة؟ أشاحت بوجهها احتقاراً. كان ديك يرتدي سروالاً رمادياً وقميصاً مفتوح الياقة.

صاحت السيدة كيلفير، بابتسامة مشرقة:

ـ آه ديك، أجئت تنضم الينا لاحتساء الشاي؟

جلس على الأريكة ماداً ساقيه أمامه نحو النار.

ـ إذا كنتما ترحبان بي فأنا أحب الانضمام إليكما.

التفت إلى زوجته العابسة فردت عليه ساخرة: «تسرّ جدتي دوماً برفقتك».

قاطعتها جدتها: «بل تسرّ كلتانا برفقته».

سأل زوجته: «صحيح؟».

ردت بلسان لاذع: «طبعاً».

ضحك ضحكة خافتة ثم غير الموضوع مفكراً:

ـ ذهبت إلى «غريتمورهال» القصر الرئيسي، فوجدت أن فيه اصلاحات.

ـ أتقترح أن نسكن هناك؟

خرج السؤال آلياً من فم ايلسا التي تذكرت أنها اقترحت عليه يوماً أن يسكن فيه عوضاً عن انتزاع «آردال هال» من جدتها.

ـ بالطبع لا.. إنه لا يشبه هذا المكان أبداً.

هزت الجدة رأسها: «أوافقك الرأي. إنه متداع».

ـ أفكر في تصليحه وترميمه قبل فتح أبوابه للعامة.

ـ يا لها من فكرة رائعة، ولكنك ستحتاج إلى عدد كبير من الموظفين.

ـ أيصعب إيجاد هذا النوع من الموظفين هنا؟

ـ ليس الأمر سهلاً ديك، فالاعمال المنزلية لم تعد محبوبة. وفي السنوات الأخيرة فقدنا العديد من الأيدي العاملة الشابة، فالمدن تجذبهم. عندما جئنا إلى هنا كنا نستطيع الحصول على مدبرة منزل وظاهية بستين جنيهاً.

صمتت السيدة كيلفير ونظرت إلى حفيدتها. ردت ايلسا اخيراً، ليس لأنها تريد المشاركة بالحديث بل لأن جدتها التي لاحظت صمتها عبست بشدة.

www.liilas.com/vb3

ـ كان الستون جنيهاً مبلغاً كبيراً في تلك الايام.

لن تقبل ايلسا أن تكون السبب في إقلاق جدتها. لذلك حين نظر ديك إليها، ابتسمت له. ولكنها لما رأت التسلية والسخرية على وجهه تمنت لو لاذت بالصمت. لقد تصرف في الصباح التالي على الحادثة التي وقعت بينهما وكأن شيئاً لم يحدث بالأمس.. ومنذ تلك الليلة وهو يتصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

ـ لو استطعنا إيجاد موظفين، لفتحناه للعامة.

كان في صوته قلق ولكن ما لفت انتباهها استخدامه صيغة الجمع، التي خرجت منه آلياً.

قالت السيدة كيلفير: «من الممكن إيجاد بضع أشخاص نستطيع الاعتماد عليهم للعمل تحت إمرة وكيل... يجب أن تضع اعلاناً في الصحف المحلية ديك».

هز رأسه: «أجل، سأفعل ذلك».

غيّر مرة اخرى الموضوع ليذكر عطلة اليونان.. في المرة الماضية أراح ديك بال ايلسا بشأن ترتيبات النوم قائلاً إنه في حال سفرهم سيشرح لأمه ضرورة وجود فراش إضافي في غرفة السيدة كيلفير، لأن ايلسا تضطر أحياناً للنوم معها عندما تكون صحتها متدهورة.. بدت السيدة كيلفير وقتذاك متحمسة للرحلة.

ـ سيكون الامر رائعاً..! لم أذهب إلى اليونان من قبل في الواقع، لم أسافر كثيراً.. متى سنذهب ديك؟ وكم ستطول رحلتنا؟ سأحتاج إلى ملابس جديدة.. ايلسا! يجب أن تصحبيني إلى «مانشستر» أو «ليفربول» لأتسوق.

ساد صمت كان ديك وايلسا خلاله يكبحان ضحكتهما. أخيراً قالت ايلسا:

ـ جدتي العزيزة.. إنها مسافة بعيدة للسفر. على أي حال، أنا

غير متحمسة للذهاب.. ديك يأخذ الامور وكأنها أمر مسلم به. فكيف يتوقع مني أن أقرر هذا الأمر فوراً.

رد عليها: «أنا لم أطلب منك أن تقرري».

تورد وجهها لأنه ذكرها بوقاحة بأنه صاحب القرار، وبأن عليها أن تنفذ ما يقوله لها. لم تكن قادرة على الرد، نظرت إليه وهو يتابع التحديق إليها. ونظرت جدتها إليها تهز رأسها، وكأنها لا تفهم:

ـ غير متحمسة؟ لكن لماذا عزيزتي؟ فما أروع رؤية بلد ديك الثاني.

نقلت بصرها إليه: «أعتقد أنك تريد ذلك لتعرفها إلى والدتك وشقيقتك. أين تقيمان في اليونان؟ أذكر أنك تحدثت عن اليونان ولكنني..»

صمتت فجأة، وبحدة، فأدارت ايلسا نظرها إلى ديك.. ولكنها لم تكن سريعة بما يكفي، مع أنها تستطيع أن تقسم، بأن ما أصمت جدتها، اشارة من صهرها! فقالت تركز عينيها على وجه زوجها:

ـ لماذا سكت جدتي؟ ماذا أخبرك ديك، ليثير اهتمامك باليونان؟

هزت العجوز كتفيها بلا مبالاة.

ـ لقد نسيت حقاً.. عزيزتي.

كانت عينا ايلسا ما تزالان مركزتين على زوجها الذي التوت شفتاه وبرقت عيناه السوداوان بالتسلية. فسألته:

ـ ألا تذكر أنت ديك؟

ـ أخشى أني لا أذكر عزيزتي.. وكما قالت جدتك الأمر غير مهم.

ـ أمتأكد؟

التفتت إلى جدتها، فلاحظت نظرتها الساهمة. إذا كانا يعقدان مؤامرة ما، فتكون ايلسا محظوظة حقاً إن تمكنت من دفع أحدهما

www.liilas-com/vb3

ليزلّ لسانه.

بعدما ذهبت جدتها إلى النوم مساءً، قالت له: «إنه لعظيم تفكيرك مع جدتي، ولكنها ليست في صحة تناسب رحلة كهذه».

ـ سأكلم الطبيب حين يحضر.

شهقت ايلسا، وبدت ساخطة لأنه يتولى الأمور بنفسه بهذا الشكل ولكنه أردف:

ـ أرى أن علينا ترك كبار السن يحيون حياة طبيعية ضمن المعقول. لماذا نبقي جدتك هنا إن لم يكن السفر مضراً لصحتها؟ ستصاب بخيبة أمل فظيعة إن سافرنا دونها.

ـ ما كان عليك أن تثير موضوع العطلة في اليونان.. قلت لك إنني لن أذهب!

ـ هدئي روعك ايلسا ظنتك تعلمت درساً. لو كنت مكانك لامتنعت عن محاولة اختبار مدى صبري مرة أخرى.. فأنت لا ترغبين في المزيد من الكدمات المؤلمة..

ـ أنت كريه!

ـ وأنت...؟ أذكر أنني قلت إنك أشدُّ النساء فظاظة وأكثرهن سوء خلق. يؤسفني أن أكرر ذلك ثانية لكنك كما وصفت ايلسا.. أما سبب ما أنت عليه فهوسك بكبريائك.. كيف بلغت هذا الحد من الهوس، الذي هو أبعد عن إدراك جدتك، وادراكي؟

ـ جدتي؟ اكنت تتحدث مع جدتي عن كبرياتي؟ كيف تجرؤ؟

ـ انها قلقة.. تقول إن كبرياءك بلغت حد العجرفة. ولهذا ايلسا حملت على عاتقي مسؤولية تحريرك من كبريائك.. لم أهددك ليلة بتمريغ أنفك بالتراب بدافع الغضب. للمرأة في اليونان تواضع محدد، وهذا التواضع جذاب ومحبب..

وسمح لصوته بالتلاشي فبدا بعيداً ومع ذلك محبباً! لماذا تلفظ

بكلمة كهذه؟

ـ ديك.. لماذا قلت هذا.. أعني لماذا استخدمت كلمة محبب؟

نظر إليها بسرعة، وكأنه يبحث عن شيء. كانت تجلس مستقيمة في مقعدها، يداها في حضنها ورأسها مرتفع بطريقته المتكبرة المعتادة، غير أن رأسها ارتفع هذه المرة عن غير عمد لأنها فعلاً لم تكن تحس بالتكبر بل على العكس كانت تشعر بما هو أكثر بقليل من الرضى.. أحست انها ناعمة ودافئة. وأدركت انها في مزاج متغير التذبذبات، وهذا بحد ذاته مزاج جديد عليها.. ما من رجل آخر، جعلها تحس هكذا.. لكن، من جهة أخرى، ما من رجل تمكن من الاقتراب منها كما اقترب ديك. وما تعرفت إلى رجل يملك قوة شخصية زوجها، قوة وجدت أنها معجبة بها رغم أنفها.

جلست تترقبه، نظر ديك إليها، وعيناه تنتقلان من يديها إلى شكلها المستقيم، ثم إلى رأسها، المرتفع بكبرياء.. وبدا كأنه سحب نفساً عميقاً قبل أن يقول:

ـ كنت أقارنك، بالنساء اللواتي عرفتهن في اليونان.

ران سكون رهيب على الغرفة.. كان الحطب في الموقد المنخفض العريض يشتعل بصمت مضفياً دفئاً على الغرفة. ابتلعت ايلسا شيئاً مؤلماً في حنجرتها، وأخفضت عينيها، تنظر إلى يديها المطبقتين.. ما هو الرد الذي كانت تنتظره؟ ماذا أرادت من هذا الزوج القاسي.. من هذا الرجل الذي نعتها بالفظاظة وسوء الأخلاق، والذي عزم النية على تمريغ أنفها بالتراب. الرجل الذي تخيفها قوته.. أجل، لقد استخدمت هذه الكلمة أخيراً معترفة. لقد جعلها تحس بصغرها ليلة حفلة الفندق. ونجح مرة أخرى في جعلها تحس بالصغر وهي على المركب.. وها هو يقارنها ثانية بنساء اليونان.

www.liilas.com/vb3

نظرت إليه.. إنه وسيم خال من النقصان وهو إلى ذلك أنيق، مميز الطلعة بهذه البشرة النحاسية، بخطوط وجهه الكلاسيكية. تحولت عينا ايلسا إلى شعره الاسود المتموج ثم نقلتهما إلى كتفيه العريضتين وإلى خصره النحيل. بدا كمن ينتظر تعليقاً منها، فقالت كلمات لم تكن تعنيها، ولكنها خرجت منها لا إرادياً:

ـ هل قارنتني.. ووجدتني مرغوبة؟.

ـ وجدتك مرغوبة بكل تأكيد. لكن أمامك طريق طويلة، قبل أن تمتلكي جاذبية يمكن مقارنتها بجاذبية نساء اليونان.

اشتعل غضبها، ولم يخطر ببالها أنه غضب أثاره الألم لأنها بكل بساطة لا تعرف معنى أن يؤلمها رجل، فما من رجل أثّر في ضربات قلبها أو دفع بخفقاته لتتسابق. كانت ترسل كل رجل منهم مجرجراً أذيال الخيبة.

ـ إن كنت أدنى منهن درجة إلى هذا الحد، فلماذا لم تختر يونانية زوجة لك؟

نظر إليها بازدراء، مستهجناً غضبها متجاهلاً ما قالته. إذ قال ساخراً:

ـ الكبرياء مرة أخرى؟ لقد جرحت كرامتك بما قلته، لذلك غضبت.. يا إلهي يا فتاة! كم سأروضك في ما بعد!

برقت عيناها، وامتقعت وجنتاها بلون أحمر قان:

ـ تهديدات أخرى؟ قد أرد لك الصاع صاعين!

قال بهدوء يبعث الجنون: «هذا سيوفر لي عذراً جيداً لتأديبك».

امتقع وجهها:

ـ لو عرفت جدتي أنك تكلمني بهذه الطريقة لارتاعت.. ولو أخبرتها بمعاملتك لي لكرهتك.

كان صوتها هادئاً إنما الغريب أنها وجدت نفسها مصدومة بسبب

اشتعال غضبها. وتنهدت.. ليته لا يكون عدائياً هكذا!

سألها بشيء من التسلية: «هل أجد لمحة غيرة بسبب صداقتي مع جدتك؟».

نظرت ايلسا إلى النار المشتعلة وهي لا تدرك أن تغيراً كبيراً حل قسمات وجه زوجها الذي نظر إلى وجهها المضاء بلهيب أحمر من حطب الصنوبر المشتعل. رقّت أساريره إلى درجة الحنان، وتحركت حنجرته، وكأن عرقاً كان ينبض فيها.

قالت اخيراً منكرة: «لا أغار، غير أنني لا أفهم لماذا أحبتك جدتك الطريقة. يتملكني أحياناً انطباع بأن هناك شيئاً ما بينكما».

نظرت إليه مباشرة وهي تتكلم، فرأت حاجبيه يرتفعان استفهاماً.. ولكن ما لم تره، كان الانتفاضة الصغيرة التي بدت عليه عند سماع كلماتها:

ـ شيئاً ما بيننا؟ ما طبيعة هذه الفكرة الغامضة؟

هزت رأسها:

ـ لا أدري كيف أشرح الأمر.. مثلاً لماذا توقفت جدتي عن الكلام فجأة بعد ظهر اليوم؟

ـ توقفت عن الكلام؟ لم ألاحظ ذلك.

هزت كتفيها بنفاد صبر وقالت مستسلمة:

ـ لا بأس.. إنما لا أستطيع السماح لجدتي برحلة كهذه.

ـ قلت لك إنني سأكلم الطبيب الذي سيساعدنا على اتخاذ القرار.

ـ أنا نفسي، لا أريد الذهاب!

ـ إنه العناد، والكبرياء. قلت لك إنك ذاهبة، وهذا ما أثّر في كبريائك. ولكنك ستسافرين معي إلى اليونان سواء أردت الذهاب أم أبيت.

www.liilas.com/vb3

توهجت عيناها، واستعدت للمشاجرة:

ـ أتصدق حقاً أنك قادر على إجباري؟

تنهد ثم تكلم بتسامح مدهش وبصبر كبير وكان بذلك يحاول تجنب العداء المفتوح.

ـ سنرى ايلسا ما إذا كنت قادراً على إجبارك على المجيء. لنا في الوقت الحاضر فلنسقط الموضوع كما أننا غير واثقين من قدرتنا على ترك جدتك بمفردها أو على أصطحابها معنا.

ـ وإن لم نستطع تركها او أصطحابها معنا.. فماذا سيحدث؟

ـ إن استطعنا تركها نذهب معاً...

ـ لن تملي عليّ ارادتك!

قال بلهجة حازمة لا تلين:

ـ ايلسا.. قلت إننا سنسقط الموضوع في الوقت الراهن.

كانت ايلسا أول من تكلم مع الطبيب حين قام بزيارته الرتيبة بعد ثلاثة أيام. كان ديك في الاسطبل مع جواده الجديد «قدموس» وهو حصان عربي أصيل ذهبي اللون، اشتراه من رجل اسكتلندي. عندما رأته ايلسا قالت:

ـ إنه جميل! وعملاق أيضاً!

بدا ديك مسروراً بحماس زوجته: «أعجبك إذن».

ـ طبعاً.. أتهتم إذا أعجبني؟

ابتسم بسخرية خفيفة لهذا السؤال الذي لا لزوم له.

ـ من عادتي أن اختار ما أشاء في أمور هامة كهذه ولكنني مسرور لأنه أعجبك، بامكاننا الآن امتطاء الجياد معاً عوضاً عن الخروج بمفردك كل صباح وسيكون ذلك منذ الغد.

بدا لها قوله أمراً فرفعت رأسها وقالت له بحدة إنها كانت تمتطي جوادها بمفردها منذ زمن طويل وهي الآن تفضل ذلك. فلاحظت

تلك النظرة الفولاذية التي باتت تعرفها خير معرفة ولكن ويا للدهشة ارتدّ عنها.

استقبلت ايلسا الطبيب في المكتبة وهناك سألته:

ـ أود أن أسألك إن كان بإمكان جدتي السفر. أنا شخصياً لا أظنها قادرة على السفر، أما زوجي فهو مصمم على أن ترافقنا إلى اليونان.

صمتت قليلاً، ثم أردفت ببطء:

ـ أعتقد أنك توافقني الرأي بالنسبة لعدم قدرة جدتي على السفر.

لوت ابتسامة فم الطبيب، وقال بلهجة غريبة:

ـ أتقترحين أن ابلغ زوجك أنني أمنع جدتك من السفر.. سيدة هيلفيلد؟

امتقع لونها بسبب هذا القول الصريح، لكنها رفعت رأسها وقالت بكبرياء:

ـ بل أتوقع منك التصريح بما تؤمن أنه الأفضل لها.

ـ سأفعل هذا بالضبط سيدة هيلفيلد.. أتلاحظين أنها لم تصب بنوبة منذ بعض الوقت؟

ـ نعم منذ زواجي.

ـ بالضبط.. زواجك رفع حملاً ثقيلاً عن كاهلها وها هي الآن تتمتع بصحة جيدة.

ـ أتعتقد انها لن تصاب بضرر إن سافرت إلى اليونان؟

ـ هذا ما لا أستطيع الرد عليه قبل أن القي نظرة عليها اليوم. وأضيف سيدة هيلفيلد، أنني أحبذ لكبار السن العيش حياة طبيعية قدر الامكان.

إنها كلمات ديك...

ـ قد تقصر هذه الرحلة من عمرها أيها الطبيب.

www.liilas.com/vb3

ـ إن كانت حالتها سيئة فسأمنعها بكل تأكيد. أما الآن فاعذريني، سأذهب لرؤيتها.

قالت له إن زوجها يريد محادثته. أضافت:

ـ انه في الاسطبل، سأرسل في طلبه.

ـ شكراً لك سيدة هيلفيلد.

ابتلعت غضبها فمن الواضح أن الطبيب لا يقف في صفها. توجهت إلى الاسطبل لتنادي ديك الذي كان يرتدي ثياب الفروسية. قالت له:

ـ الطبيب هنا.

ـ وهل جاء؟ لقد بكّر في الحضور!

هزت رأسها، تربت عنق الحصان: «إنه مع جدتي في غرفة الجلوس».

ـ سأقصده لأتكلم معه.

رفعت نظرها إلى جانب وجهه، ورأت أن على ملامحه نظرة مرحة اليوم. تحرك شيء ما في أعماقها، شيء غير جديد عليها، ولكنه الآن أقوى، وأوضح. تجنبت السؤال الذي تأرجح على حافة تفكيرها لكنه ظلّ ملحاً وثابتاً وهو ينذر بالبروز إلى عقلها الواعي قريباً طالباً الرد.

كانت الرحلة إلى اليونان مدبرة.. بدت الجدة منفعلة كطفل صغير.. ويا للغرابة! أما ايلسا فأصبحت مؤخراً هادئة على غير عادتها وكانت تكره أن تقابل عيناها عيني ديك النافذتين، لتجنب ما قد يحدث لها في ما لو حصلت أخيراً على الرد عن سؤالها. تذكرت إعلانها الساخر امام ايلما انها لن تقع في الحب أبداً. ولكن هذا بالضبط ما أصابها!

صدمها هذا الاكتشاف خاصة لأنها رفضت لعدة أيام مواجهة

السؤال بحزم.. وكرهت حتى الإجابة عنه.. حاولت مرات ومرات تنحيته وادعاء عدم وجوده ولكن الرد عليه جاء أخيراً على حين غرة...

كانت مرة هي وديك يمتطيان الجياد. وكان الوقت صباحاً فيه الجو منعش تشوبه تلك الرائحة الحادة النافذة التي تسبق قدوم الخريف.. شعرت بأن النزهة منعشة بل هي أروع نزهة قامت بها. كانت تعترف بذلك لنفسها حين علقت قدم جوادها في جحر أرانب، وتعثر، رامياً فارسته.

سرعان ما أصبح ديك قربها يلتقطها لتقف.. أحست بيديه القويتين تحت ذراعيها.. وأحست بقسوة جسمه وهو يشدها إليه كما شعرت بشكل خطير بوجهه فوق وجهها وبأنفاسه الباردة على خدها. ارتجفت وتلقت صدمة ولكنها لم تكن واثقة ما إذ كان ما رأته في عينيه لهفة أم عكس ذلك ولم تكن واثقة ما إذا كان في صوته لهفة وخوف:

ـ ايلسا! هل أنت بخير؟

رفعت وجهها إليه شاعرة بتلك الرجفة تسري في كيانها كله. كانت قادرة على الابتعاد عنه وعلى القول له إنها بخير.. غير أنها اكتشفت، أن من الروعة والمتعة اتباع الغرائز.. وهكذا ظلت ملتصقة به شاعرة بأقصى درجات الراحة بين ذراعيه.

وفي تلك اللحظة بالذات جاءها الرد على سؤالها. فارتعشت بعنف وخجل وأجابت عن سؤاله:

ـ أنا بخير.. ليس هناك عظام مكسورة.

ـ الحمد لله! لقد أخفتني يا طفلة.

سألت مترددة مطأطئة الأهداب عمداً: «صحيح؟».

إذن هذا هو الأمر.. طالما أكدت لنفسها أنها لن تجد مثالها

www.liilas.com/vb3

الأعلى.. ولكن.. كيف حدث لها هذا؟ فهي لم تعجب حتّى بديك.. فماذا عن تسلطه، وماذا عن تهديده لها بتمريغ أنفها بالتراب؟ كان عليها أن تكرهه على ذلك لا أن تحبه!

ـ أخفتني طبعاً. أما تعلمين بموضع هذا الجحر، ظننتك تتنزهين هنا دائماً؟

ـ أنا على علم به ولكنني نسيت.

ثم تلاشى صوتها. كان تفكيرها كله منصباً على رفيقها غير أنها تمنعت عن إضافة هذا إلى ما تقول.

ـ أقادرة أنت على امتطاء الجواد ثانية، أم تفضلين السير؟

توقف مبتسماً فاسترقت إليه نظرة من تحت أهدابها ولاحظت الراحة التي طفت على أساريره وكانت هذه الراحة وهذه اللهفة قد حلت محل ذلك التعبير الغامض.

ـ أم ربما عليّ أن احملك؟

ما أروع أن يحملها ولكنها في مثل هذا الموقف ستخسر شيئاً من كبريائها بكل تأكيد.. قالت بسرعة: «لا، ديك. لا حاجة إلى ذلك. أنا قادرة على السير».

ـ ألا تريدين الركوب؟

هزت رأسها نفياً.

وهكذا عادا إلى المنزل سيراً عبر الحقول والغابات. وفي الطريق اندست إحدى يديه تحت مرفقها وأمسك بالأخرى عنان ستارلايت وقدموس معاً.

منذ تلك الرحلة باتت تتوق إلى رحلة اليونان رغم قلقها على جدتها. في أحد الأيام وفيما كانوا جالسين عشاء نظرت إلى زوجها وقالت:

ـ لم يسبق أن سافرت جدتي جواً.

ردت الجدة: «سأكون بألف خير يا عزيزتي».

وقال ديك: «ستكون الجدة سعيدة برفقتنا».

وهزت ايلسا رأسها.. مع أن عينيها اضطربتا لانهما التقطتا نظرة زوجها. للمرة الثانية ترى ذلك التعبير الغريب الذي رأته في عينيه مرة قبل الآن وكان ذلك يوم كانت على مركبه، واضطربت كثيراً لأن جدتها لم تحضر لرؤيتها. في تلك المناسبة بدا ديك أو السيد هيلفيلد غير قادر على إشاحة عينيه عن وجهها. قال لها يومذاك إنها لغز محيّر وظنت أنها سمعت تنهيدة نفاد صبر تخرج من بين شفتيه.

قال لها ديك وهما كالعادة بعد العشاء بمفردهما في غرفة الجلوس الصغيرة: «لا تقلقي ايلسا».

كانت الموسيقى الهادئة تصدح في الغرفة والحطبات التي أضافتها إلى الموقد تزغرد، فسبحت الغرفة في نار ملتهبة رائعة تؤثر في مطلق إنسان يمتلك مشاعر.. ومع أنها كانت معتادة على هذا، إلا أن ايلسا نظرت إلى ما حولها بإعجاب.. الأمر الآن مختلف.. صحيح أنه مألوف غير أن نظرتها الحالمة انصبّت على الرجل الجالس في الجانب الآخر.

شاهدت وجهه تحت وهج النار، وأحست بحنان كبير لا تدري من أين أتاها. كان في أعماقها احساس بألم لذيذ.. ما أروع الوقوع في الحب ولكن هل سيحبها ديك يوماً؟ فطالما ابدت له تعجرفها ونادراً ما أظهرت له العرفان بالجميل على ما فعله لها ولجدتها.

التفتت مرة أخرى إلى الوجه الجذاب، الصارم بتزمت، فإذا به ينظر إليها مبتسماً ببطء، وعيناه تسألانها عن رد عما قاله..

ـ لا أستطيع إلا الشعور بالقلق ديك. أنت تعلم أننا لن نسامح أنفسنا إذا ما أصابها مكروه.

ـ لدينا تأكيدات الطبيب لذا علينا اصطحابها.

www.liilas.com/v03

ـ أجل.. أعترف بهذا. إنما أخشى عليها كثيراً لأنها كانت كل دنياي لمدة طويلة.

ظهر تعبير غريب على عينيه: «والآن؟».

ردت تنظر إليه مباشرة: «لدي زوج الآن».

ماذا تفعل؟ أتغازله؟ كادت الفكرة تخنقها، ورفعت رأسها. لن تذل نفسها هكذا!

التمعت عينا زوجها، وغضّنت جبينه نقطية مفاجئة بسبب هذا التغيير غير المتوقع ثم قال:

ـ أجل.. لديك زوج.

آلمتها تلك الحدة في صوته إلا أنها لم تظهر شيئاً من ألمها ذاك بل على العكس، كانت باردة، لطيفة بكياسة، مبتسمة.

بعد لأي وفيما هي في غرفة نومها، تقف قرب طاولة الزينة، تحدق إلى صورتها في المرآة، سمحت لألمها بالظهور. فامتلأت عيناها دمعاً لأنها تذكرت الحديث المتوتر الذي دار بينهما.. لقد بدا لها ديك بعيداً عنها ملايين الأميال... ومع ذلك كانت قوة شخصيته تصل إليها، وعرفت بطريقة ما، أنه يريد منها ان تستغني عن كبريائها الباردة، وأن تتبنى التواضع..

أبداً! لقد قررت..

قال لها ديك في النهاية وهو يرفع يده متثائباً: «سآوي إلى فراشي، عمت مساءً».

ولم ينتظر حتى ليرى ما إذا كانت ستصعد معه. لقد تركها هناك تجلس قرب النار، فشعرت بالضياع والوحدة لأول مرة في حياتها.

* * *

٩ ـ كبرياء وتواضع

في الطائرة نظرت إلى الأسفل باتجاه جزيرة كورفو فتذكرت بعض ما قرأته عنها. كسرت الجدة الصمت الذي ران على الثلاثة:

ـ إنها رائعة! انظروا إلى هذه الغابات الخضراء المورقة وإلى الذرة الذهبية في الحقول وإلى الخلجان التي تشبه البحيرات.. ديك، إن ألوانها لأروع ما رأيته.

هز رأسه، ونظر إلى زوجته، وتمتم وكأنما لنفسه:

ـ إن لونها كعينيّ ايلسا. اللازورد، هو ما بين الأخضر والأزرق.

تورد وجه ايلسا بفتنة، وأخفضت أهدابها الطويلة التي ظللت وجنتيها، سألها في ما تفكر وهي تنظر إلى الجزيرة التي يقتربون منها، فقالت:

ـ تذكرت ما قرأته عنها.

ارتفع حاجباه: «وهل قرأت عنها؟».

هزت رأسها: «أجل، قرأت الكثير».

ـ وماذا اكتشفت.

كان مزاجه رائعاً، متسامحاً.

ـ اكتشفت أن دوق ادنبرة، زوج الملكة، ولد في «كورفو».

ضحك ديك، وسألها عما إذا كان هذا أهم ما قرأته عن الجزيرة

www.liilas.com/vb3

فأجابت:

- لا.. بالطبع.. لكن هذا ما ذكرني بأنه يوناني الاصل. يميل المرء إلى نسيان ذلك لأنه يبدو الآن انكليزياً.

- وما هي الأشياء المهمة الأخرى التي عرفتها؟

اخبرته ايلسا، فأضاف سؤالاً:

- وماذا عن «ناوسكا» و «اوديسوس»؟.

انتفضت ايلسا: «لا أعرف ما تعني».

- هنا مكان لقائهما.

- أوه.. صحيح؟

قاطعته الجدة: «يخت ايلسا اسمه «ناوسكا» لقد أنقذتها منه».

ردَّ مهجئاً الكلمة: «وغلبتها».

كررت الجدة حائرة: «غلبتها؟».

شرحت ايلسا: «في السباق يا جدتي.. إن اسم مركب ديك هو أوديسوس».

- صحيح.. إن هذا لمثير للاهتمام.. «ناوسكا» و «اوديسوس» كانا حبيبين. ألم تجده على الرمال في مكان ما؟ كان مطروحاً من سفينته المحطمة، كما أظن؟

قال ديك وهو ينظر إلى زوجته بمكر.

- هذا صحيح جدتي.. كانت مخلوقة ناضجة التفكير، أصرّت على البقاء فيما اختفت جميع حورياتها بكل حذر.

قطبت الجدة تركز تفكيرها.

- أوه.. أجل.. لقد كان عارياً.. يا للرجل المسكين.

ردت ايلسا مجفلة: «هكذا إذن».

ضحك ديك: «أعرفت الآن ما قصدته حين قلت إن من المناسب أن يهزم «اوديسوس» «ناوسيكا»؟

لم تقل ايلسا شيئاً، وكانت السيدة كيلفير هي السباقة للقول، لأنها لم تدرك معنى ما قيل:

- أتعني أنها تستحق الضرب لأنها بقيت هناك مع الرجل المسكين الذي لم يكن يملك ما يستره. أوافقك الرأي كانت فتاة وقحة!

ضحك ديك وايلسا على قولها هذا. وبعدما بدت حائرة هزت العجوز كتفيها، وشاركتهما الضحك. ثم قالت بعد دقائق منفعلة:

- إننا نهبط.. ديك عزيزي.. أشكرك من كل قلبي على هذه الرحلة.

- إن لم تهدئي فقد تجدين نفسك على الطائرة العائدة إلى انكلترا.

- يا لك من متسلط! أنا بخير.. لم أشعر قط أنني أفضل حالاً!

- مع ذلك عليك أن تلزمي جانب الحذر فتجنبي الانفعال.

أرسلت والدة ديك سيارة إلى المطار لاستقبالهم. انطلقت بهم السيارة فوق الطريق الرئيسية ثم تجاوزت جزيرة «بيليكاس» تتسلق منحدراً حاداً. وراقبت ايلسا جدتها فلم تر أثراً للتعب على وجهها بل على العكس، كان يطفح بالانتعاش.

أشار ديك وهو يلتفت:

- ها هي القرية فوقنا. يقبع منزل والدتي فوقها تماماً..

بدت القرية ساحرة. كانت مجموعة متحلقة من المنازل المطلية بألوان برّاقة. وفيما هم صاعدون إلى الأعلى، لفت انتباه ايلسا منظر البحرين الايوني والادرياتي الساحر أما الجزيرة فامتدت تحتهم بروعة.

سحبت السيدة كيلفير نفساً عميقاً: «منظر لا يصدق».

وتبادلت ايلسا الابتسامة مع زوجها.. وقالت:

www.liilas.com/vb3

- إنها منفعلة من فرط السعادة!

أحست ايلسا بالامتنان لزوجها لما كان بوفره لجدتها. وهذا ما ظهر عليها ولأنها المرة الاولى التي يرى فيها الامتنان على وجهها تحولت ابتسامته إلى سخرية خفيفة. بدا غير قادر على تبيان اجحافها يوم أنقذها. أما اليوم وبسبب جدتها، فلم تتردد في إظهار تقديرها، وشكرها لما يفعله.. قال يهز رأسه:

- أنت فتاة غريبة ايلسا.. غريبة حقاً.

احمرّ وجهها، وأشاحت نظرها عنه.. كانت تعلم ما يعني. وتمنت فجأة، لو أنها لم تولد بمثل هذه الكبرياء الزائدة.

خرجت السيدة هيلفيلد وابنتها، ايفا، لدى سماعهما صوت السيارة، وقام ديك بالتعارف ولم يكن هناك مجال للخطأ في أنه كان فخوراً بزوجته، فتخلى قلبها عن احدى خفقاته..

صافحت السيدة هيلفيلد المديدة القامة كابنها السيدة كيلفير قائلة:

- نحن سعداء بلقائكما.

ضمت ايلسا إليها تقبل خدها ثم اقتربت شقيقته لتقبلها أيضاً. نظرت ايفا إلى ايلسا بإعجاب ظاهر ثم التفتت إلى أخيها لتكشف بتلك النظرة عن مدى تعلقها به. قال ديك وذراعه حول كتفي ايفا..

- تعاليا إلى الداخل.. جدتي.. أتحبين الذهاب إلى غرفتك حالاً للاستلقاء قليلاً؟

- بالتأكيد لا..

كانت مستقيمة القامة تسير رافعة الرأس.

بدا أثاث المنزل مختلفاً عن أثاث منزل «آردال هال» ولكنه فخم مثله. اتسمّ المنزل بالترف والذوق الرفيع فأدركت ايلسا، لأول مرة، أن ديك كان ثرياً حتى قبل أن يرث الاملاك في انكلترا.

صفقت السيدة هيلفيلد بيديها وهي تقول:

- أنتم تريدون بلا شك ترتيب أنفسكم.

عندما ظهرت الخادمة أعطتها تعليمات لمرافقة السيدة كيلفير إلى غرفتها.

- لقد فعلت ما طلبت مني ديك.. خصصت لك ولايلسا الغرفة الجنوبية الكبيرة.

- شكراً أمي..

التقت عيناه بعيني ايلسا فشاهدت في تألقهما سخرية ماكرة، قبل أن يقول لأمه: «هل نُقلت حقائبنا إلى الغرفة؟».

هزت رأسها:

- حملها ديمتري كلها.. غرفة السيدة كيلفير هي الغرفة المجاورة لغرفتكما. فيها سريران صغيران. أليس هذا ما طلبته في رسالتك للاستخدام وقت الحاجة؟

تبعت ايلسا الخادمة بدون أن تنظر إلى خارج الغرفة، وكان ديك وراءها. سمعت ضحكته الخفيضة وهم يرتقون الدرج. كانت السيدة كيلفير مع الخادمة التي أوصلتها إلى غرفتها.. وقطبت ايلسا ما إن صبحا في الغرفة بمفردهما. فقالت له: «سيكون الأمر صعباً».

- صعباً؟ لماذا؟

- حسناً.. لو نمت مع جدتي طوال الوقت...

صمتت مضرجة الوجنتين: سترتاب الخادمة وقد تذكر ريبتها أمام أمك.

- هذا محتمل جداً. ولهذا اعمدي إلى ترتيب فراشك في الصباح فبذلك لن يعرف أحد شيئاً.

- أجل، أظنني سأفعل هذا.. سأرتبه كل صباح.. تقريباً.

نظرت حولها. كانت الغرفة كبيرة ورائعة خزائنها بيضاء

www.liilas.com

ومقاعدها من المخمل القرمزي الاحمر، وستائرها بنفسجية في البسط حول السرير فقرمزية. رأت ايلسا في إحدى الزوايا إناء فيه زهور فقالت:

ـ إنها غرفة جميلة.. والمنظر! هل لي أن أخرج إلى الشرفة؟

فتح لها الباب: «طبعاً».

لحق بها فشعرت به قريباً، وعرفت أن ذقنه فوق رأسها مباشرة بل ظنت أن شعرها يتحرك، ولكنها لم تكن متأكدة، ربما أنفاسه حركته.. أحست بالتوتر والاثارة، وتاقت إلى الشعور بذراعيه حول قدها. تساءلت ما قد يحدث، لو استدارت، وواجهته...

تمتمت بصوت أجش:

ـ هذا المنظر.. رائع.. هل تنمو هذه الزيتونات على سفوح التلال.

ـ أجل.. في كورفو، تنمو أكبر اشجار الزيتون في اليونان.

ـ البحر شديد الزرقة...

ـ إنه لون مبهج.

ـ المنازل هناك في الأسفل.. جميلة.. إنها قرية جميلة.

ـ سنزورها غداً.

ـ أيمكن أن نذهب إليها سيراً على القدمين؟

كانت تتكلم بسرعة متفوهة بما يخطر ببالها.. تألمت شوقاً إلى لمسته. ولكن الكبرياء.. الكبرياء وحدها حالت دون أن تستدير.. لن تسمح له برؤية حاجتها إليه.. وأجاب:

ـ بكل تأكيد، إذا رغبت.. لكن يجب أن نترك الجدة هنا.

ـ نسيتها للحظات. سنذهب بالسيارة اذن.

بعد لحظات لحقته. كان يقف وسط الغرفة ينظر إليها.. تمتمت وهي تتجنب نظرته:

ـ ملابسي.. سأضطر إلى تركها هنا؟ أعني لو وضعتها في الغرفة الاخرى لارتابت الخادمة بشيء.

التوت شفتاه «يستحسن تركها هنا».

نظرت إليه بريبة لأنها واثقة انه يكبح ضحكة، فجأة، ضحكت هي: «أليس وضعاً شاذاً؟».

رد دون أن يبدي شيئاً مما يشعر به من تسلية:

ـ إنه هكذا فعلاً.

لكنها أحست غريزياً أنه يريد أن يضحك وأنه لسبب ما، يتمسك بقناع التجهم. رأته يراقبها بحذر، وكأنه يتوقع حدوث شيء ما. حيرتها تصرفاته إلى درجة بدأت معها تحس بالاضطراب، وسعت إلى الاختباء خلف وقارها. وبهذا، غيرت الموضوع لتقول:

ـ سأوضب ثيابي.

تبع قولها صمت غريب.. بدا وكأنه يتنفس بعمق قبل أن يستدير ويلتقط حقيبته الجلدية الثقيلة.

ـ افعلي ما شئت، ولا تهتمي بي.

عضت على شفتها بقسوة.. ماذا فعلت؟ مدت يدها لتلتقط حقيبتها لكنه سبقها إليها ووضع حقيبتها على السرير وفتح لها الغطاء.

ـ شكراً لك ديك.. أية خزانة سأستخدم؟

أخرجت سروالاً أبيض اللون ووضعته على الفراش. رد عليها طوعاً: «اختاري ما شئت».

ـ سآخذ هذه اذن.

لم تشعر بعدم الثقة بنفسها كحالها في هذه الأيام. ماذا يصيبها؟ لكن.. لِمَ السؤال؟ لم تعد المرأة ذاتها التي رفضت بكل عنجهية مساعدة ديك حين علق مركبها في الرمال بل لم تعد المرأة التي

www.liilas.com/vb3

تزوجها فهي الآن فتاة تحب! وتشعر بالحاجة إلى محبة زوجها ولكن بسبب الكبرياء لم تستطع أن تتبع رغباتها، أو توصلها إليه فهي لم تعامله قط بطريقة قد تدفعه بها إلى أن يحبها، فكيف تستطيع كشف مشاعرها؟ والأنكى أنه من غير اللائق أن تقوم هي بالمبادرة الأولى...

قالت بعدما أنهت تفريغ الحقيبة:

ـ يستحسن أن أذهب لأتفقد جدتي.

كانت متوترة، بل أكثر من متوترة، ففي هذا الموقف بالذات بدت قوة شخصيته أعمق من ذي قبل ووجدت نفسها تتقبل الواقع بأنه لو اراد، لفعل الآن بها ما يريد! اشتعل سخطها بسبب هذا الاعتراف المذهل، ورفعت رأسها عالياً. كان على وشك أن يعيد معطفه في الخزانة، لكنه التفت إليها فجأة، وسأل بصوت قاس: «هل من خطب؟».

نظرت إليه ببرود: «لا، سأتفقد جدتي فقد ترغب في أن أفرغ لها حقيبتها».

بدت عيناه حادتين ومنفعلتين:

ـ لقد ذهبت ليديا معها، ومن الطبيعي أن تساعدها في توضيب أغراضها.

ردت بعناد: «سأذهب على كل حال، أراك وقت الشاي؟».

وجدت نفسها مرة اخرى تتكلم لأجل الكلام فقط. كانت نظرته جافة أما صوته فتخللته نبرة باردة.

ـ هذا ما أتوقعه.

ثم أشاح وجهه عنها. وقفت دقيقة وجزء رقيق منها يكره أن يتركه، وآخر بارد، غارق بالكبرياء يدفعها إلى الذهاب.

تركت الغرفة أخيراً وأغلقت الباب بهدوء خلفها.. ثم توجهت

إلى غرفة جدتها.

قُدم شاي بعد الظهر على الشرفة خارج غرفة الجلوس الرئيسية وكانت ليديا قد حملته بنفسها، لاحظت ايلسا الأواني الفضية اللمّاعة فأعجبت بها.

أبتسمت السيدة هيلفيلد لكنتها قائلة:

ـ أخبريني كل شيء عن هذا الغرام العاصف ايلسا.. فأنا لم أعرف عنه شيئاً من ديك، فهو كما رأيته متحفظاً لا يكشف عن كنه نفسه.

وجدت ايلسا نفسها تميل بدفء إليها.. فمما لا شك فيه أن والدة ديك سعيدة بهذا الزواج. نظرت ايلسا إلى زوجها، المشغول بالحديث مع اخته، فرفع نظره إليها بنظرة ساخرة.

ـ لقد التقينا أول الامر حين أنقذني ديك من.. من الغرق.

ـ من الغرق؟

ـ ألم يقل ديك شيئاً عن هذا؟

ترددت ايلسا لأنها تشعر بنظرة زوجها المترقبة. فمن الواضح أنه مهتم بالطريقة التي ستعالج بها الموضوع. قررت أن تفاجئه بسرد كل شيء، بالضبط، كما حدث.

قالت تعترف:

ـ أخشى أنني لم أكن ممتنة له في البداية.. لكن، أترين، لقد جرح كبريائي حين دعاني «آنسة استقلال»؟

ـ جرحت..؟

وضحك الجميع.. أما صيحة ديك المستهجنة فأعلمتها بأنه نسي ما قاله وأنه يكتشف لتوه سبب معاملتها السيئة له. تدخلت السيدة هيلفيلد مبتسمة:

ـ إن هذا لا شيء عزيزتي.. فهذا بالضبط ما قد يقوله ديك.

www.liilas.com/vb3

فلديه جو من التشامخ أحياناً، ولكنه لا يقصد الإساءة. على كل أخبريني بالباقي.

كان الأمر صعباً جداً... خاصة أن ايلسا لم تكن تعرف ما قاله ديك لأمه. نظرت إليه نظرة توسل، فسارع إلى إنقاذها معترفاً بأنه وقع في حبها منذ البداية تقريباً.. أصغت ايلسا إلى هذا الكذب الواضح ولكنها شعرت بالاستغراب من قدرته على الكذب على أمه بجرأة.

وبدت الجدة مشغولة بأفكارها، لأنها كانت تهز رأسها وفي عينيها تعبير متباعد.

أخيراً تكلمت إيڤا، بخجل:

ـ إن هذا لرومانسي! أظنك محظوظة جداً ايلسا..

أنبها شقيقها بلطف: «ايڤا، كلامك غير دبلوماسي أبداً».

قامت بحركة مستنكرة بيدها: «ليتك تفهمين ما قصدت ايلسا».

ـ بالطبع أفهم ايڤا.

أخذت تنقل نظرها من الفتاة إلى أمها.. تتذكر أن ديك ذكر لها التواضع.. إذا كان التواضع موجوداً هنا فهو غير مرئي.. ولكن شعرت به كامناً. إنما بعيداً عن هذا، هناك شيء جذاب غير عادي في هاتين المرأتين.. خاصة في السيدة هيلفيلد، اليونانية.

إن أكثر ما أثر في ايلسا هو جوّ الصفاء والسكون المتحلق كالهالة حول حماتها.. كانت مثقفة، لديها كبرياؤها، مع ذلك كانت امرأة بكل ما للكلمة من معنى.. أجل اولاً وآخراً هي امرأة لطيفة وانثى مغرية بشكل يسلب اللب، عندها عطر روحي يلقي الدفء على من حولها.

نقلت ايلسا نظرها أخيراً فوجدت زوجها يركز عينيه على وجهها.. وسرعان ما عرفت أنه قرأ أفكارها.

أراد أن تقابل أمه، لتكتشف جمالها الداخلي ولتحس بتواضعها الذي هو على الأرجح ركيزة جمالها. لقد جاء بها إلى هنا لتتلقى درساً في التواضع.

هل يتوقع من زوجته أن تحاكي أمه؟ تصاعد الغضب فيها، ومعه العجرفة.. كيف يجرؤ على نصب أمه مثالاً لها؟ كيف يجرؤ على استخدام هذه الطريقة الماكرة ليُشعرها بصغرها أمام أمه؟ أهذا جزء من خطته ليمرّغ كبرياءها بالتراب؟

انتزع الغضب اللون من وجهها، وتحولت عيناها إلى ذلك الظل الاخضر الذي يصحبها في حالتي الغضب والسخط.. ومضت عيناها ترسلان إليه رسالة تخبره بأنها غير مهتمة وبأنها ترفض ما يريد بشدة.

بدا وكأنه سحب نفساً عميقاً، كانت أفكاره في تلك اللحظة أفكاراً بعيدة جداً عن اللطف.

* * *

www.liilas.com/vb3

١٠ ـ لا كبرياء مع الحب

كان مقدراً لديك وايلسا، أن يقضيا يوماً كاملاً بمفردهما بعدما قررت السيدة كيلفير المكوث في المنزل عوضاً عن مرافقتهما في جولتهما المقررة. كان الاتفاق أصلاً أن يخرج الخمسة في سيارة والدة ديك، ولكن السيدة هيلفيلد أحست بقليل من التعب، وقالت إيفا، إنها تفضل البقاء معها.. ثم أعلنت السيدة كيلفير في آخر لحظة أن الرحلة ستكون متعبة لها.. ولكن ايلسا لم تنخدع فقد عرفت أن جدتها تتعمد البقاء، لتستطيع هي وديك البقاء معاً يوماً كاملاً.

قال ديك، لايلسا التي كانت تنتظره للانطلاق معاً إلى السيارة:

ـ لا تروق لك كثيراً فكرة خروجنا.

كانت مشاعرها مختلطة.. فمن ناحية تتوق إلى قضاء هذا اليوم معه. ومن ناحية أخرى ما تزال تشعر بالسخط لأنه ما أحضرها إلى هنا إلا لتتلقى درساً في التواضع من أمه، ولكنها قالت: «لا أدري لماذا تقول هذا؟».

عبس ديك وهز رأسه: «لا تستطيعين حتى أن تكوني صادقة».

قالت ببلادة ذهن متعمدة: «صادقة؟».

صرّ على أسنانه بنفاد صبر: «إن كنت جاهزة فلننطلق».

قاد السيارة إلى القرية التي توقفا فيها بضع دقائق لشراء حقيبة

خرزة كانت قد شاهدتها في وقت سابق. بعد ذلك تابعا المسير نحو عاصمة الجزيرة، المسماة باسم الجزيرة نفسها. وهناك، ذهبا إلى مقهى صغير حيث تناولا فيه مرطباً اسمه «تستسي».

صاحت ايلسا بعدما تذوقته: «إنه من الزنجبيل».

ـ هذا صحيح... ولقد أدخله الانكليز إلى هنا عبر الهند..

ابتسم لها ولكن وجهها ظلّ غير متأثر فمن الواضح أنه يحاول تجنب العداء، لكنها شعرت بأن أعصابه متوترة، ومن المحتمل أن تنفجر بسرعة وعندئذ ستقول له رأيها بما فعله لاصطحابها إلى هنا!

بيد أنها سرعان ما بدأت تنسى غضبها فالجولة لطيفة مريحة، وديك مصمم على الاذعان لرغباتها في التوقف والتفرج، أو التجوال في الأزقة الصغيرة، لمجرد التمتع.

وصلا إلى طريق ضيقة، حيث كان الغسيل معلقاً على الشرفات.. فقال لها ديك:

ـ كانت هذه يوماً أكثر القصور الفينيسية الطراز جمالاً. كانت السيدات ينظرن عن الشرفات إلى الفرسان وهم يتعاركون في الأسفل.

ـ ولكنها في حالة مزرية أعني القصور.

هز رأسه: «لكل طابق مالك مختلف. وهذا هو سبب عدم العناية بها».

اقتربا من الكاتدرائية بعد قليل فسألت ايلسا عما إذا كان بإمكانهما الدخول إليها. جاءهما القسيس مبتسماً يفرك يديه.. لاحظت إيلسا التعبير الساخر الذي تراءى على وجه زوجها.. وسألها القسيس:

ـ أتريدان رؤية بقايا جثة «سانت تيودورا»؟.

رفعت نظرها إلى ديك فالتقط نظرتها ولكنه انتظر حتى تبتسم هي

www.liilas.com/vb3

هذه المرة. وهذا ما فعلت، ثم قربت باندفاع مفاجيء يدها من يده فأمسك بها، ونظر إليها قبل أن يضغط عليها بشدة ثم لم يلبث أن تركها.. أحست بقشعريرة تمر في أوصالها ولامست حرارة ناعمة أطراف وجنتيها، إنها بادرة الحب الأولى التي يظهرها ديك ومع أنها لم تكن شيئاً يذكر. شعرت ايلسا بأن قلبها كان يخفق بسرعة أكبر من المعتاد، وما السبب إلا بارقة الامل التي ترافقت مع ما فعله والطريقة التي راح ينظر فيها إليها الآن.. كان القسيس يقول:

- سانت تيودورا هي زوجة الامبراطور «تيوفيليس» الحاكم البيزنطي في القرن التاسع.

ارتجفت ايلسا، ولكن القسيس كان يقودهما فتبعته وتبعها ديك ليسألها عابساً:

- أتريدين حقاً رؤية هذا الشيء المخيف؟

هزت رأسها نفياً ولكن قبل أن تقول شيئاً، كان القسيس قد أزاح الغطاء عن التابوت. كانت تستلقي في الظلال المعتمة، مومياء بلا رأس.. انحنى القسيس وقبل يداً قبيحة ممدودة.

شهقت ايلسا بصوت منخفض: «يا الله! كيف تستطيع ذلك؟».

هز ديك رأسه، وقال القسيس، منتظراً:

- يجب أن تقبلاها.

ارتجفت ايلسا مرة أخرى وارتدّت بعيداً.

كانت الكنيسة التالية التي دخلا كنيسة سانت سيبردون قديس الجزيرة المحلي الذي يُسمى نصف الذكور هنا على اسمه. عندما تقدم قسيس آخر، متفائل إليهما يسألهما إذا كانا يريدان تقبيل قدم المومياء، أخذ ديك زوجته من ذراعها وقادها إلى الخارج.. حيث شهقت:

- لماذا يفعلون هذا؟ الأمر مرعب جداً!

- بل هو بربري.. فلهذه المومياء مظهر عابس خبيث..

- وليس لتلك المومياء رأس؟

- بلى لها رأس ولكنه مغطى بقماش أسود.

قالت بقرف:

- يا لها من طريقة لجني المال...

- ومن يعلم إن كانت هذه المومياء حقيقية أم لا؟

- إن اهل اليونان بسطاء ساذجين..

صمتت، ونظرت إليه باعتذار مردفة:

- ما كان عليَّ قول ذلك.

ضحك: «لا تهتمي لي. فطالما اعتبرت نفسي إنكليزياً، إنما لا تقولي شيئاً أمام أمي..»

- لا.. لن أقول لها ما لن يعجبها.

ظل ديك يمسك ذراعها، ووجدت نفسها تأمل ألا يتركها أبداً.. فلسبب سخيف مجهول، كانت تسمع جدتها تقول: ما أروع أن يكون للمرء شخص هو له وحده.

اقترح ديك العودة إلى السيارة للتوجه إلى قصر الامبراطورة إليزابيت لتناول الغداء لأنه حالياً مطعم وكازينو.

عندما وصلا إلى القصر توجها إلى المطعم حيث كانت فرقة غجرية تعزف على آلات مختلفة. أطلت الشرفة التي جلسا فيها على غابة رائعة وعلى حديقة غناء فيها تماثيل الشقيقات التسع اللواتي تقول الاساطير إنهن تحمين الشعر والموسيقى والغناء...

قالت ايلسا: «الحديقة رائعة ولكن التماثيل قبيحة».

- أوافقك الرأي ولكن المعروف أنه كان للامبراطورة ذوق سقيم.

- بل أظنها امرأة مجنونة. ماذا أصابها؟

www.liilas.com/vb3

جلسا إلى إحدى الموائد وأجابها:

ـ اغتيلت.. واشترى القيصر القصر لسكنه الصيفي.

كان الظلام قد بدأ يخيم على الجزيرة حين سألها ديك عما إذا كانت قد اكتفت.. تنهدت ايلسا برضى وقناعة.. وقالت:

ـ لقد احببت كل لحظة توقفنا فيها ديك. أشكرك على منحي هذا اليوم الرائع.

أبطأ السيارة، وكأن قدمه انتقلت إلى المكبح، ونظر إليها بدهشة، فتورد وجهها في العتمة، كان يفكر في أن شكرها له عفوي خالص.

انتهت العطلة بسرعة مدهشة، فأسفت ايلسا حقاً ولكنها ودعت حماتها وشقيقة زوجها، اللتين بدتا حزينتين للفراق، غير أنه حين اتفق الجميع على أن تزورهم امه واخته في انكلترا لقضاء عطلة الميلاد، شعروا براحة اكبر. قالت الأم بحماس:

ـ أكاد أموت شوقاً لرؤية منزل ديك الجديد.. أنا أحب انكلترا، فقد عشت فيها سنوات عديدة لكننا كنا نعيش في الجنوب.. وأخجل أن أقول إنني لم أزر يوماً الشمال.

قالت ايلسا: «شمال البلد جميل جداً».

لم تستطع أن تفهم، لماذا لا يزور الأجانب الجانب الشمالي من انكلترا. أردفت:

ـ منطقة ديربي شاير بشكل خاص لها جمال مميز. أليس كذلك ديك؟

ابتسم لحماستها، لكن حماسته كانت تعادل حماستها حين رد أن الريف هناك جميل فعلاً.

لم تمض على عودتهم سوى بضعة أيام حين أعلن ديك عن رغبته في الذهاب إلى ايسوكس.

ـ سأغيب ليلة، لأبيع اليخت.. وسأقابل مشترياً يوم الاربعاء.

ـ أتبيع «اوديسوس»؟

لقد أحبت الإبحار، ومع أن شيئاً لم يُذكر بالنسبة للذهاب إلى «ايسوكس» إلا انها كانت تتوقع زيارتها يوماً ما. وتطلعت قدماً للابحار مع ديك.. خاصة منذ اكتشفت مشاعرها نحوه.. قال لها وقد لاحظ خيبة املها.

ـ فكرت في الأمر.. ولا أرى أننا سنقدر على الذهاب إلى هناك هذه السنة، فالشتاء قادم، لذا قررت بيعه، في السنة المقبلة سنشتري واحداً آخر أكبر منه.

التمعت عيناها: «هذا رائع. لدينا منزل صيفي هناك وستكون الجدة بخير فيه، ولن ننام على اليخت..»

تركت صوتها يتلاشى تدريجاً ثم لاذت بالصمت للحظات قبل أن تضيف بمرح:

ـ جدتي قد لا.. قد لا..

وعضت على شفتها تشيح بوجهها بعيداً.

قال لها بلطف: «لا، ايلسا. قد لا تكون الجدة معنا».

سافر بعد الغداء مباشرة فرافقته ايلسا إلى السيارة متمنية لو ترافقه إلا أن كبرياءها حالت دون أن تطلب. وكانت متوترة الأعصاب لأنه لم يفكر في دعوتها إلى مرافقته.

قالت له وهو يستعد للانطلاق:

ـ كن حذراً ديك.. ستعود مساء الغد؟

هز رأسه، ينظر إليها كأنه ينتظر شيئاً، أو يأمل في شيء.. ابتسمت له مودعة.. فارخى المكبح اليدوي ثم انطلق، تبعته عيناها وتساءلت عما إذا كان ينظر إليها عبر المرآة.. هل سيلوح لها؟ لكنه لم يفعل، وهي لم تفعل كذلك.

www.liilas.com/vb3

همست لنفسها عابسة: «كان عليّ أن ألوّح له».

لكن الوقت قد فات، واختفت السيارة عن ناظريها.

لم تكد تدخل إلى المنزل، حتى شاهدت، من نافذة غرفة الجلوس، امرأة شابة، تتقدم من جهة الحقول، فصاحت بفرح:

ـ هذه روبيلا..

قالت الجدة بصوت منغب:

ـ روبيلا؟ أنا مسرورة عزيزتي.. لم تريها منذ زمن طويل، أليس كذلك؟

ـ أجل.

لم تكن قد التقت بها منذ ذلك المساء الفظيع الذي أتى به ديك، وهي لم تخرج منذ ذلك الوقت أولاً لأنها كانت خائفة من ديك، وثانياً لأنها لم تكن قادرة على إظهار وجهها بعدما حدث. لكن السبب الأساسي هو عدم رغبتها في الخروج بدون زوجها. فقد تلقيا دعوات وسيخرجان معاً من الآن وصاعداً.. كما اقترح ديك أن يقيما حفلة عشاء في القريب العاجل. عندما أصبحت روبيلا عند الباب خرجت ايلسا لتتلقاها قائلة:

ـ ما أروع رؤيتك مجدداً!

ثم صمتت عندما لاحظت اسارير صديقتها المتجهمة:

ـ هل من خطب؟

هزت روبيلا رأسها. وصلتا إلى الصالة الصغيرة وهناك التفتت إلى ايلسا قائلة:

ـ أنا تعيسة جداً ايلسا.. وأحسست أنني يجب أن أكلم شخصاً لا يمكنك التحدث إلى أمك بأشياء كهذه.

قدمت ايلسا مقعداً قرب النار، ودعت صديقتها للجلوس.

ـ ما الأمر.. روبيلا.. أهو روبن؟

هزت صديقتها رأسها بحزن.. وشدت ايلسا حبل الجرس لتطلب الشاي.

ـ كنت مجنونة عندما وقعت في حبه. لكنه كان معجباً بي حتى أكثر ايلسا.. ظننت.. ظننت..

قالت ايلسا بقسوة: «هل شجعك؟».

ردت بصراحة: «ليس بالضبط ولكننا كنا منسجمين».

نظرت روبيلا إلى يديها وتنهدت:

ـ لا أطيق الذهاب إلى أي مكان هذه الأيام لأن روبن وايلما دائماً هناك.

صمتت ايلسا متذكرة كيف كان روبن مستعداً لتجاهل ايما عندما كانت هي هناك ومتذكرة أيضاً كيف ركز اهتمامه على ايلسا وحدها.

ـ أيستحق منك هذا الاضطراب روبيلا؟ فأنا أراه شخصاً متقلباً.

ـ أتشيرين بذلك إلى تلك الليلة عندما حوّل اهتمامه إليك؟

هزت ايلسا رأسها وقد تورد وجهها بسبب تبدل تعابير وجه روبيلا التي سمعت بما فعله ديك، لكنها لن تذكر الامر أبداً.

ـ ستجدين من هو أفضل منه بكثير روبيلا.. لا أراه شخصاً يعرف ما يريد مطلقاً.

ـ ايلما جذابة جداً.

ـ وأنت كذلك.. جذابة من الداخل ايضاً. وهذا أهم من مجرد الجمال حسب رأيي.

ـ هذا رأيك أنت أما الرجال فتتوجه قلوبهم إلى الجميلات.

ـ لأنهم أغبياء!

ـ لكن روبن لطيف.

ـ حقاً؟!

تنهدت روبيلا:

www.liilas.com/vb3

ـ أعرف أن روبن منقلب ولو ظهرت في حفل راقص لترك ايلسا ولسعى إليك.

وجدت نفسها تسأل:

ـ هل ستقام الحفلة الراقصة في «البالاس» هذه الليلة؟

ـ أجل.. لكنني لن أذهب.

ـ لو ترافقنا إلى الحفلة ووجدته قد ترك ايلما وصبَّ اهتمامه عليّ فهل ستقنعين بأنك أفضل حالاً بدونه؟

اتسعت عينا روبيلا: «أتذهبين إلى الحفل بعد كل ما.. ما».

صمتت متأخرة فظهر عليها الذنب والاعتذار. سألتها ايلسا بتجهم:

ـ اذن تعرفين كل شيء.. كنت أعرف أن ايلما لن تترك فرصة إلا وتنشر فيها القصة.

تصاعد اذلالها مرة أخرى، حتى كاد يخنقها.. مع ذلك، لم تشعر بالغضب من ديك.. وكررت روبيلا:

ـ ستذهبين إلى الحفلة الراقصة الليلة؟

ـ إذا آمنت انها ستساعدك على معرفة كنه روبن وجعلتك تخرجينه من تفكيرك.

ـ لكن.. زوجك؟

ـ إنه مسافر حتى الغد. اضطر للسفر إلى ايسوكس في عمل.

ـ لكن، ألن يعرف؟

ـ لا أدري كيف له أن يعرف.

فكرت روبيلا لحظة، ثم اعترفت أخيراً: «سأستمتع برؤيتك وانت تسلبين ايلما روبن».

ردت بجفاء: «بدون شك ولكنني أشد اهتماماً بشفائك مني بهيامك».

تنهدت روبيلا:

ـ ليس ما بي هياماً. أعرف انك ستستخفين بي، ولكنه حقاً شاب لطيف، ولو عرفته جيداً لاعترفت بما أقول.

امتنعت ايلسا عن التعليق رغم شكها في ما قالته صديقتها.. وفكرت أن روبيلا ستشفى من تعلقها بروبن إن استطاعت أن تثبت لها أي نوع من الرجال هو.

ولكن في الحفلة وجدت ايلسا أنها قد تغير رأيها بشأن روبن توافق صديقتها رأيها. ففي الواقع هو شاب لطيف مقبول حين يتعرف إليه المرء عن كثب.. وذهبت روبيلا لتتحدث إلى أصدقاء، وأما ايلما فلم تحضر حتى الآن وهكذا وجدت ايلسا الوقت الكافي للتفكير في مزايا الرجل وبدأت تتعجب من سرعة تقلب مشاعره، مرت بجرأة اسم صديقتها في الحديث فرأت انقباضاً مفاجئاً على وجهه، فسألته:

ـ أتعجبك روبيلا؟

هز رأسه بلا تردد، وطافت عيناه في الغرفة، وكأنه يبحث عنها، كانت قد دخلت إلى قاعة الرقص مع ابن عم لها صدف وجوده في الحفلة الراقصة.. وأجاب: «أجل، تعجبني كثيراً».

حارت في أمره فقالت: «خرجتما معاً فترة على ما أعتقد».

ـ هذا صحيح.

ـ هل تشاجرتما؟

ـ لا.. أبداً.

ارتبكت ايلسا.. ولم يبدُ لها انها تحرز تقدماً كذلك رغم جهدها. أخيراً قالت:

ـ لبتك لا تعتبرني متطفلة، فأنا صديقة روبيلا ومن الطبيعي أن أهتم.. قل لي أن أهتم بشؤوني إن كنت أزعجك..

www.liilas.com/vb3

بعد كلماتها هذه بدا وكأنه قد توصل إلى قرار، وسرعان ما سمعت ايلسا سبب فتور علاقته مع روبيلا... كان روبن يأمل أن تتطور علاقتهما إلى ما هو دائم. لكن سرعان ما برز ما حال بين روبن وبين تودده إليها.

تابع الكلام ثم توقف فجأة، ليقول لأيلسا إن ما يقوله سري للغاية وإنه يأمل أن تدافع عنه أمام روبيلا التي تتجنبه بعدم الظهور في أية مناسبة اجتماعية قد يكون فيها موجوداً. بعد ذلك تابع سرد قصته حتى انتهى.

صمتت ايلسا مفكرة للحظات:

- إذن، حاصل هذا كله أن ايلما بعدما قررت أن تتخذ لنفسها..

رفعت يدها تسكته لأنه حاول مقاطعتها:

- بعدما قررت اتخاذك لنفسها، استخدمت بخبث ما يثير الابتزاز، لتحقق مآربها؟

- يحتاج والدي إلى الارض المحاذية لمنجم الرصاص. وهي ملك لوالد ايلما، وفي الواقع تلك الأرض مهملة ولولا ايلما لوافق والدها بسرعة على بيعها. عندما كادت الصفقة تنهار حزن والدي لأنه لن يستطيع إتمام خطة عمله ثم التقت ايلما والدي ولا أدري كيف حدث ذلك صدفة، وكانت النتيجة أن حصل على معلومات تكفي ليقول لي لو أنني عاملت ايلما بلطف فستتم الصفقة.

- وهكذا نقلت اهتمامك من روبيلا إلى ايلما.

- كنت مضطراً. فوالدي يواجه خطر خسارة ثروة، وأحست أنني مدين له.. لكن..

أكمل وعيناه تبرقان غضباً:

- كنت سأتخلى عنها عقب الصفقة مباشرة.

- لكنك كنت تخرج مع ايلما مؤخراً. أليس كذلك؟

- لم أخرج معها منذ تمت الصفقة.

- ولكن روبيلا تعتقد أنك تخرج معها. ولهذا ظلت متوارية عن المناسبات.. قالت لي إنها لا تطيق رؤيتك مع ايلما طوال الوقت.

عض روبن على شفته:

- اذن لهذا السبب لم أرها مؤخراً. أردت الاتصال بها ولكن خشيتهم على ما يبدو معطل، ثم قررت زيارتها غير أن الأمر صعُب عليّ. أحسست انني نذل، وأظنني اقتنعت بانها لن تسامحني أبداً.

- ما كان يجب أن تقتنع بمثل هذه الحماقة.

قال لها بحرارة: «أنت حلوة المعشر ايلسا. علمت أنك فتاة عظيمة منذ البداية.. لم أعرف ما هو الأمر، ومع ذلك أردت التعرف إليك، أتذكرين أنني خاطرت بالاساءة إلى ايلما.. ولكنك لا تذكرين ذلك على الأرجح».

وهز كتفيه دلالة احباط.. فقالت: «بل أذكر».

عندما تبدلت تعابير وجهه علمت أنه كان يتذكر ما حصل حين دفع ديك مهاجماً مجيئها. ظنت أن روبن انجذب إلى جمالها كسائر الرجال.. ولكن الواضح أنه كان يأمل فقط أن يتعرف إليها كصديقة. وهذا ما أعجبها فيه فهو منيع أمام جمالها.

لم يخطر ببال ايلسا أن ديك قد يكتشف أمر ذهابها إلى الحفلة الراقصة أثناء غيابه، ولكنه اكتشفه بطريقة جعلتها ترتبك، وتتمنى لأول مرة في حياتها لو تستطيع أذية أي شخص، جسدياً.

كان هذا في اليوم التالي على عودته من ابسوكس حين عرض فجأة مرافقتها إلى «باكويل» للتسوق.

- يلزمني بضعة أغراض من الصيدلية، وأريد شراء بضعة نعصان.

www.liilas.com/vb3

وكان أن ترافقا قالت ايلسا وهي تريح جسدها على المقعد الجلدي.

- ما أروع ركوب السيارة بدون قيادتها.

- إذن استمتعي في مقعدك الوثير.

بعدما أوقف السيارة في موقف السيارات قال لها: «ما رأيك باحتساء الشاي؟».

- رائع!

لم تفكر إطلاقاً أنها قد تلتقي بايلما في المقهى.

- ايلسا!

اجفل الصوت ايلسا التي كانت قد جلست مع ديك إلى مائدة قرب النافذة. أكملت ايلما بصوت شبيه بمواء قطة:

- ما أسعدني برؤيتك. هل تمتعت بالرقص ليلة الثلاثاء؟ أنا لم أحضر الحفلة ولكنني أُخبرت بأنك كنت هناك.

رفعت عينيها السوداوين إلى وجه الزوج الوسيم:

- ألا يحب زوجك الرقص؟ سيفسد عليك متعتك إن اضطررت للخروج بمفردك دوماً.

أشاحت ايلسا وجهها عنها، وانصرفت ايلما. أما وجه ديك فاشتعل غضباً ثم قال لها وعيناه مشتعلتان غيظاً:

- لقد تحديتني إذن! ما إن أدرت ظهري حتى. انتظري حتى عودتنا إلى المنزل!

ما إن عادا إلى منزلهما حتى صبَّ ديك نيران غضبه الوحشي على رأس زوجته. لقد جعلها ترتجف فيما مضى، لكنها هذه المرة، اضطرت للبكاء كذلك.

- أنت لم تترك لي مجالاً للكلام...

- ليس هناك ما أريد سماعه! فالكبرياء والعنجهية دفعتاك إلى

التحدي. أنت ترفضين أن يملي عليك أحدهم أوامره أليس كذلك؟ قلت لك.. أليس كذلك؟

كان يمسك بها ثم رماها عنه وهو يتكلم فارتدت متعثرة ووقعت فوق الاريكة.. أردف بصوت راعد وهو يتحرك إليها ثانية.

- سأشفيك من كبريائك هذه، ولو كان هذا آخر ما سأفعله، سأمرّغ هذه الكبرياء بالتراب، ولو اضطررت لاستخدام القوة.

لم تحاول الكلام وكيف ذلك ونحيبها يهزها.. اتجهت إلى الباب، خائفة، خائفة من أن يمسكها ويعيدها إلى الغرفة.. تذكرت أن جدتها قالت إن كبرياءها قد تخرج كل ما هو سيء في نفس ديك. ولكن لم تكن الكبرياء دافعها للذهاب إلى الحفلة.

أمام الباب توقفت ثم التفتت إليه لأنها كانت تشعر بالخوف من أن يلحق بها غير أنه تركها تغادر. فوصلت إلى غرفتها حيث بكت بكاءً مراً.

كان الانسجام قد بدأ يطرق بابيهما والعطلة التي رفضتها بادىء الأمر انقلبت إلى سعادة أنستها جميع أحزانها وغضبها.. ومنذ عودتهما وهي تسعى جهدها لإنجاح الزواج. وقد دعت ربها مراراً ليحبها ديك. أما كبرياؤها فلم تتخل عنها فهي ما تزال جزءاً منها، وعلى ديك القبول بذلك.

همست مرات ومرات لنفسها: إنما ليست الكبرياء دافعي للذهاب إلى الحفلة الراقصة. لو تركني أشرح الامر لفهم الوضع.

ولكن الكبرياء هي من منعتها من الكلام فيما بعد بعدما خمد كل شيء، وأصبحت الحادثة من الماضي. لاذ ديك إلى الصمت حيناً وإلى الكآبة أحياناً. لكنه أحياناً كان يتقبل التقرب منه، وكان بإمكانها في هذه اللحظات أن توضح له كل شيء.. غير أن ايلسا، رفضت الكلام لأنها كانت مجروحة، ومستسلمة لجرحها بلا تذمر.. ديك لن

www.liilas.com/vb3

يحبها أبداً، ولو كان يشعر نحوها ولو بذرة من العاطفة، لما جرحها بتلك الطريقة.

أما ديك مع جدتها فكان رائعاً ساحراً، ومهتماً. قالت الجدة لها يوماً:

ـ أنا أمضي أروع أيام حياتي.. ما أروع الحصول على اهتمام رجل.

توقفت العجوز هنيهة عن الكلام ثم أردفت سائلة:

ـ كيف تسير الأمور بينكما؟

فاجأ السؤال ايلسا من حيث لا تدري.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ قلت لك عزيزتي، إنني أحب رؤيتك سعيدة قبل أن...

ـ أنا سعيدة جدتي.

ـ ليست بالسعادة التي تستطيعين أن تحصلي عليها.. أنا لست عمياء.

ـ لا أفهمك؟

ـ بل تفهمين.. وتعرفين.. أنت تحبينه، ولكن كبرياءك تحول دون قيامك الخطوة الأولى.. أليس كذلك؟

انتفضت ايلسا وشحب وجهها:

ـ ديك لا يحبني، فلماذا أقوم بأية خطوة؟

التفتت فجأة لأنها شعرت بوجود زوجها، الذي وقف في باب الصالة المفتوحة. ترى ماذا سمع من كلامهما؟

تقدم إلى الأمام وبدأ يتحدث إلى السيدة كليفير.. فوقفت ايلسا لتتركهما.

مرّ أكثر من أسبوع على شجارهما الفظيع. وفي أحد الأيام التقى ديك بايلسا وهي عائدة من نزهتها الصباحية على ظهر جوادها. كانت

مرتدية ثياب الفروسية رافعة شعرها متوردة الوجنتين. تفرست فيها عيناه، ثم قال بهدوء:

ـ تعالي إلى غرفة الجلوس ايلسا.. لديّ ما أقوله لك.

توترت أعصابها وعرفت غريزياً انها على وشك سماع ما هو غير مرضيّ، ولكن حين تكلم زوجها أخيراً، وقفت في مكانها مسمرة تنظر إليه بذهول وبلاهة.. أخيراً تمكنت من القول بعدما كادت ساقاها تنهاران:

ـ أنت.. ستتـ... ستتركني؟

ـ إنه قرار توصلت إليه بعد تفكير طويل.. لن ينجح زواجنا..

ـ لكن، لماذا لم تفكر في هذا من قبل؟

أحست بأنها مريضة جسدياً وأن الدم جف في عروقها.

ـ كنت قلقاً يومذاك على جدتك، وبدا لي الزواج أفضل حل لمشاكلنا جميعاً.. على أي حال، لقد ذكرت لك سابقاً أن علاقتنا هذه لن تجعلني سعيداً فعلياً وها أنا أجدها اليوم لا تطاق.

نظرت إليه بحيرة.. كانت عيناه مستقرتين على النافذة، فبدا وكأنه غارق في النظر إلى المنظر خارجاً.

ـ لكنك قلت كذلك إنك ستكون راضياً.

لم يرد للحظات.. وشعرت بأنه لم يتوقع ان تتذكر هذا.

ـ لقد أخطأت لأنني لست راضياً. إنه وضع غير طبيعي، بل هو وضع ستجدينه يوماً غير معقول.

نظر إلى عينيها مباشرة:

ـ سيجد كل منا من يناسبه في النهاية.. وعلينا حين يأتي هذا اليوم أن نلغي الزواج ليكون كل منا حراً للزواج ثانية. أما في هذه الأثناء، فسيكون هذا المنزل منزلك وكذا الحال بالنسبة للمزرعة سأحول ملكيتها لك..

www.liilas.com/vb3

قاطعته: «لا...».

لم تستطع أن تكمل فقد جفَّ فمها، وأحست بألم رهيب في حلقها. ولكن كبرياءها اعتلت مرتبتها من جديد.

رد بقسوة: «سنناقش الأمر لاحقاً، واعلمي أنني مسافر في آخر الأسبوع».

ـ آخر الاسبوع؟

لم تستطع استيعاب ما قال.. وحاولت إقناع نفسها بأن هذا لا يحدث لها.. إنه مجرد كابوس مرعب ستستيقظ منه قريباً، ولكن الرجل الواقف أمامها حقيقي ولا تدري لماذا شعرت بأنه يتوقع منها التصرف بطريقة ما، لكن كيف؟ هناك طريقة واحدة في مثل هذا الموقف، وهي أن تتمسك بكبريائها. فعليه ألا يعرف ما تعانيه في أعماقها.. يجب ألا يعرف أنه بذلك يحطم قلبها.. لقد تحدث ببرود عن الانفصال والبحث عن شخص ثان.. حسناً.. قد يجد هو شخصاً آخر أما هي فأبداً..

ارتجف ثغرها فارتدت عنه.. وغادرت الغرفة بسرعة.. ولم تتذكر جدتها إلا بعدما أصبحت في الردهة.. كانت غارقة في بؤسها حتى نسيت كم ستتألم الجدة لرحيل ديك عن القصر.. ما هي إلا لحظة تردد حتى عادت إليه، كان يقف قرب النافذة ينظر إلى الحديقة فالتفت إليها.. أكان على وجهه ترقب ما؟ قالت بصوت مرتجف: «جدتي. هل فكرت في ما ستشعر به؟».

ران صمت كامل شامل ورأت كتفيه قد احدودبتا قليلاً. إذن، هو قلق على الجدة.. ولكنه حين تحدث فاجأها بقوله:

ـ ستكون على ما يرام.. في الواقع، قلت لها إنني راحل، ووافقت على أن هذا أفضل سبيل.

عقد التقطيب حاجبي ايلسا، وقالت وهي لا تصدق ما تسمع:

ـ أوافقت الجدة على رحيلك؟

ـ إنها تنظر إلى الموضوع بتفهم. فهي تؤمن بأن من الأفضل إنهاء هذا الوضع غير العادي.

هزت رأسها ونسيت بؤسها، أو على الأقل، نحته جانباً.

ـ لكن جدتي متعلقة بك كثيراً ديك.. ولا أصدق أنها تأخذ الأمر بهدوء وروية.

هز كتفيه بلا اكتراث: «اسأليها إذن».

وارتدَّ عنها مجدداً.

سعت ايلسا إلى جدتها في الحال.. وكان ديك على حق، فقد ردت بهدوء، وفلسفة:

ـ إنه شاب قوي فكيف تتوقعين منه أن يتحمل هذا النوع من الزواج.

ـ لكنه كان يعرف ما كان يفعل حين وافق.. إنه يلتزم بالوعد الذي قطعه.

ـ لا أظنه قطع لك وعوداً بل أنت من افترض وجودها. أعتقد أنه حين تزوجك كان أكثر من واثق أن زواجه سيصبح طبيعياً.

ردت ايلسا مرتجفة: «لم يشر قط إلى أنه يريد زواجاً طبيعياً».

ـ ولو فعل؟

همست، تهز رأسها: «لا أدري. إنه لا يحبني».

قالت العجوز بلهجة حادة:

ـ لا تدرين.. وهل كنت ستوافقين على أن تكوني زوجة حقيقية له؟ أيمكن هذا ايلسا؟.

هزت ايلسا رأسها مرة اخرى وأحست بالدموع تطفر من عينيها.

ـ قلت لك لا أدري.. أما كان ليتركني لو وافقت على أن نعيش حياة طبيعية؟

www.liilas.com/vb3

ـ هذا بالضبط ما أظنه ايلسا..

وأشاحت برأسها عن ايلسا وكأنها لا تستطيع مواجهة عينيها.

* * *

١١ ـ قبل أن ترحل

قال ديك، إنه مغادر المنزل صباح السبت باكراً. كانت الأيام الأخيرة بالنسبة لايلسا جحيماً لا يطاق، تساءلت خلالها عما ستكون عليه حياتها بعد رحيله إلى الأبد. كان هادئاً بشأن الأمر كله.. بل لم يكن آسفاً حتى. فكرت في ما سيقوله أصدقاؤها ومعارفها بشأن انهيار زواجها السريع.. «كان ذلك متوقعاً بوجود كبريائها.. ما من رجل يطيقها».. «كانت تنظر بتكبر تجاه الرجال لكن زوجها رفض أن تنظر إليه بكبرياء» و «تستحق لقد تلقت عقاباً تستحقه».

وهناك ايلما طبعاً..

ولكن الغريب أن تفكيرها في كلام الناس لم يزعجها كثيراً وعندما اعترفت لنفسها بأنها لن تهتم بآرائهم أدركت بشكل مذهل أن كبرياءها يجب أن تكون حيث قال زوجها.. في التراب!

أخذت تذرع غرفة نومها في الليلة التي سبقت رحيله.. وأحست انها تعرف بما يشعر به من يفقد وعيه، وعقله. لم تعد تستطيع التفكير، أو الاحساس، بل لم تعد تستطيع البكاء حتى. لقد جمَّد بؤسها كل شيء في أعماقها وجَّمد معه دموعها وخدَّر أحاسيسها. عندما سمعت حركة خافتة في الغرفة المجاورة تساءلت: «هل يوضب حقائبه؟» جف حلقها، وسرت في أوصالها رجفة كبيرة.

هل يوضب حقائبه؟

www.liilas.com/vb3

غداً في مثل هذا الوقت ستكون تلك الغرفة خالية...

سمعته يتحرك ثانية بخطوات متثاقلة بلغت الباب المشترك.. مررت يداً مرتجفة على جبينها، لتزيل العرق المتصبب. كانت كبرياؤها ممرغة بالتراب. إنما ليس تماماً. هناك شيء واحد.. فقط سيوصلها..

طرقت الباب بخفة.. فتوقفت الحركة، وساد الصمت.. رفعت يداً مرتجفة لتطرق ثانية ولكن ديك فتح الباب قبل ذلك. كان مرتدياً كامل ثيابه، كحالها تماماً علماً أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

سألها بهدوء: «نعم ايلسا».

حملقت فيها عيناه ببرود. ولكنها شعرت بالتوتر فيهما وشعرت بقوته تتطاير لتبلغ كيانها وهذه القوة هي ما جذبتها إلى داخل الغرفة بعدما تنحى جانباً. ما إن أصبحت في الداخل حتى التفتت إليه تواجهه. كانت حتى الآن تحس بخلجة أخيرة من خلجات كبريائها تقاوم الموت.. وانتظر زوجها بهدوء ناظراً إلى عينيها..

ـ ديك..

ـ نعم.. ايلسا؟

احنت رأسها: «أنا.. نحن.. أعني.. جدتي تظن.. أنك لن تتركني إن عشنا حياة طبيعية».

مد يده يرفع رأسها بلطف:

ـ هل لنا أن نخرج الجدة من هذا الموضوع؟

شدت يديها: «هل تقبل البقاء معي ديك؟».

أخيراً خرجت الكلمات، وأطلقت تنهيدة محطمة، أخرجت ما كان يعتمر في أعماقها، وأجهشت بالبكاء.

ـ سأطيع أوامرك كلها ولكن لا تتركني.. أتوسل إليك.. ابق معي ديك، فلن أستطيع العيش بدونك...

انقطع صوتها فجأة، وغطت وجهها بيديها لتجهش ببكاء تعجز عن منعه:

ـ أعلـ.. أعلم، أنك لن تحبني إنما سأكون زوجة كاملة لك...

وجدت نفسها على صدره: «ايلسا!».

كان يرتجف وهو يضمها، وكأنه لا يريد أن يتركها.

ـ آه يا محبوبتي.. ما كان أقسى...

انقطع صوته ايضاً.. ، وبدا غير قادر على النطق، رفعت بصرها إليه عبر دموعها تنظر إليه بعدم تصديق، وقلبها يخفق بين جنباتها.

ـ قلت.. قلت.. محبوبتي...

ومع ذلك لم يتكلم.. بل شدها إليه باستسلام وامتدت لحظات الصمت، من بين جنبات سعادة لا توصف.

ـ كان صعباً جداً حبيبتي.. أجل، يا أعز الناس.. كانت مؤامرة عليك منذ البداية.

ـ منذ البداية؟

قال ببساطة مبتسماً لدهشتها: «تزوجتك لأنني أحببتك».

ـ أحببتني؟ أنت؟ منذ البداية؟.. لا.. لا يمكنك هذا.. لقد كنت.. كنت، رهيبة جداً.

رد بمرح: «لن أجادلك في هذا. ومع ذلك، وقعت في حبك، ولعلي أحببت الشخص الرائع في أعماقك وقد رأيته منذ البداية حين كنت تتكلمين عن جدتك.. أتذكرين؟».

ـ أجل.. أذكر.. كنت قلقة عليها.

ـ وظهر ذلك في عينيك الجميلتين... وعرفت أنك الفتاة التي تناسبني.

تذكرت ايلسا شيئاً:

www.liilas.com/vb3

- إذن، حين قلت لأمك إنك احببتني منذ النظرة الأولى لم تكذب؟

- طبعاً.

- ظننت أنك تقول ذلك من أجل أمك فقط.. لكنني تساءلت كيف قدرت على النظر إليها بشكل مباشر وأنت تكذب.

لم يرد ديك على هذا.. بعد لحظات سألته عما إذا كانت محقة في تقدير أنه اصطحبها إلى كورفو بغية تعلم التواضع من أمه.. فعبس.

- ليس لتتعلمي بالضبط حبيبتي.. بل لتري بأم عينك جمال روحها. إنه جمال تملكه معظم اليونانيات، وهو نابع من التواضع الذي ذكرته لك مرة.. ليس التواضع بأمر مخجل بل هو فضيلة محببة في المرأة.

- لقد استخدمت هذه الكلمة من قبل.. محببة.

هز رأسه إيجاباً وعيناه السوداوان مستقرتان بمحبة على وجهها المرتفع إليه ولأنه وجد نفسه غير قادر على مقاومة سحرها، انحنى يعانقها بشفافية، وحنان، واحترام.

تمتمت: «ديك».

- حبيبتي؟

- هل المؤامرة كلها من نسج الجدة؟ كانت تعرف طوال الوقت أنك تحبني، أليس كذلك؟

- أجل حبيبتي.. حين كانت في المستشفى تحدثنا، وبعد تعارفنا، قلت لها إنني أحببتك، وانني اعرف أنك لن تتزوجينني أبداً لأنك تكرهينني نظراً للبداية السيئة التي كانت بيننا.

- إن إجحافي وإنكاري للجميل لأمر لا يغتفر خاصة وأنت من أنقذني. أشعر بالخجل الشديد من نفسي.

- وماذا حدث لتلك الكبرياء، حبيبتي؟

- انها في التراب! وهذا خلاص جيد منها!

ضحك من أعمق أعماقه فشعرت بنبضات قلبها تتوقف. ما أشد حبها له! وما أكثر افتخارها به.

قال: «قلت للجدة إنني أحببتك، وإنني أريد الزواج بك فاقترحت أن تثير مسألة عودة المنزل إلى صاحبه بعد خمسين سنة..».

شهقت: «وهل كان لجدتي حتى آخر عمرها؟».

- بالضبط.

- يا لها من خبيثة محتالة.. وأنت أيضاً تستحق الوصف ذاته.

- ولكنك سعيدة بتآمرنا؟

كان عليها الاعتراف بأنها سعيدة حقاً ثم قالت عابسة لشيء تذكرته:

- أكانت نوبات قلب الجدة حقيقية؟

- من الواضح أنك مرتابة بها. كان بعضها حقيقياً، بالطبع.. أما تلك التي حلت بها يوم تلقت لائحة بالمنازل فتمثيلية أعدتها، لتساعدك على اتخاذ قرار الزواج بي.

شهقت: «ما كنت لأصدق أنّ شيئاً كهذا يصدر من جدتي».

- انها تحبك ايلسا، وتريد أن تراك مستقرة مع زوج يحبك ويعتني بك دائماً.

انفرجت شفتاها بابتسامة، وقبل أن تعرف ما سيحصل ضمها إليه معانقاً عناقاً شغوفاً قطع أنفاسها.

قالت بعد قليل:

- لم تكن لائحة المنازل حقيقية إذن.

- أرسلتها بنفسي.

www.liilas.com/vb3

- يا لها من مؤامرة كبيرة منكما!

- ويا لها من مهمة صعبة واجهتنا. لقد كنت ترفضين الزواج بشدة. أتتذكرين؟

تمتمت، وكأنها تفكر بصوت مرتفع:

- وتقول إنك كنت تحبني منذ ذاك الوقت.

- وأنت يا عزيزتي؟ متى أدركت انك لن تستطيعي العيش بدوني؟

- منذ فترة.. لكنني أحسست بالأمر في ذلك اليوم الذي وقعت فيه عن جوادي.. والتقطتني.. أتذكر؟

هز رأسه، لكنه عاد وقطب.

- يا لها من فرصة ضائعة.. كان علي أن اقبلك يومذاك، وكدت أفعل.

- لو فعلت لوفرنا على أنفسنا مشاكل، ومشكلتي أنني لم أكن يومذاك متواضعة.. وقد احتجت إلى هذا الوقت الأليم كله للتخلص من كبرياتي.

قال لها مؤكداً: «كانت غطاء تحميك طوال الوقت. منها ما هو موروث.. ولكنك التزمت درعاً من العجرفة بسبب أوهامك.. وكان درعاً بشعاً ايلسا.. لقد آلمتك أحياناً إنما هذا لم يمنع عني الألم أيضاً».

- أعرف هذا الآن.

بعد قليل من الصمت أطلعته على سبب ذهابها إلى الحفلة الراقصة الاخيرة. وأضافت:

- لم أكن لأحلم أن يكون لها هذه النتيجة السعيدة.

وأكملت تخبره عن قصة روبيلا وروبن.

فسألها:

- لكن، لماذا يا حبيبتي لم تطلعيني على السبب قبل الآن؟

صاحت: «أخبرك؟ آه ديك! من الواضح أنك لا تعرف نفسك أبداً.. لم تسمح لي أن افتح فمي!»

- يا حلوتي.. أنا آسف.

لثم رأسها ثم وجنتيها فعنقها: «سامحيني».

أحست بالاكتفاء فبادلته عناقه، ثم هزت رأسها:

- كادت جدتي تفشي الأمر كله مرة.

- حين سألت عن مكان إقامة أمي في اليونان..؟ أجل.. قالت إنها لم تنتبه حين ذكرت أين تقيم. وكان ذلك يوم أبديت رغبة في الزواج بك.

- لكنك لم تتركها تصل إلى هذا الحد.. لقد أوقفتها بنظرة أو بشيء ما. عرفت أن هناك مؤامرة ما بينكما!

- لا.. لم تعرفي حبيبتي بل ارتبت فقط.

- أجل، ولم أفهم ما يجري.. كاد الأمر يدفعني إلى الجنون.. ولو عرفت أنك تحبني...

- ما كنت لأقول لك إنني احببتك، حتى أدمر تلك الكبرياء إلى الأبد.

- أردت دوماً شخصاً ينظر إلى ما تحت مظهري الخارجي، وكنت أنت الأول.. فأنت لم تكن تهتم بالمشاعر الجسدية..

رفع حاجبه بدهشة: «ماذا؟».

تورد وجهها بشدة:

- كنت سأضيف أنك كنت تهتم باشياء أخرى ايضاً.

دفنت وجهها في صدره واحتاج زوجها ضغطاً قوياً ليرفعه ثانية.

- ما أروعك! خجولة، طيبة.. فتاتي المتحفظة القديمة الطراز. أنا لم أكن اؤمن أنني سأجد واحدة مثلك أبداً.

www.liilas.com/vb3

زمّت شفتيها: «قلت إنك تعرفت إلى عدد كبير من النساء اليونانيات».

ـ صحيح؟.. حسناً.. كنت أكذب.

ـ لا؟

ـ لا، ولم يكن لي فتيات هنا أيضاً.

ـ لكن.. بعضهن؟

أعترف بشيء من المرح: «فتاة أو فتاتان. تغارين؟».

ـ من الماضي لا أغار أما لو...

أخفت أصابعه ما تبقى من الكلمات فحضنها فترة طويلة وطفقت بداه تداعبان شعرها ووجهها. قالت بصوت أجش لذكرى حادثة مرت بها:

ـ وأنا من كنت منذ فترة في أعماق اليأس.. سمعتك تتحرك، وظننتك توضب حقائبك.

ـ كنت أذرع الغرفة يا حبي متسائلاً كيف سأخرج من الورطة إن لم تنجح خطتنا.

اتسعت عيناها:

ـ أما كنت عازم النية على الرحيل؟ أكان ما حدث خداعاً؟

هز رأسه: «إنها خطة الجدة التي اكتشفت أنك تحبينني»..

ـ أجل.. لقد اكتشفت هذا.. لكنها محتالة..! وأنا من عشت معها هذه السنوات دون أن أعرف فيها صفة الاحتيال هذه! لم تكن تنوي الرحيل... وأنا كنت هناك أعاني العذاب وأذرع غرفتي خوفاً مثلك تماماً.

رد بحرج: «لقد عانينا كثيراً من ألم غير ضروري».

ردت بحماس: «والآن انتهى هذا كله».

نظرت إلى عيني زوجها، فرأت فيهما نظرة ملؤها الحنان والحب.

* * *

www.liiles.com/ib3